أولادنا

أيفنهو



دار المعارف

أولادنا

١١

أيقنهو

بقلم : عادل الغضبان

الطبعة الخامسة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



١

فى بُقْعَة من بِقاع إنجلترا التى يسقيها نهر « الدون » ، قامت فيما مضى من الزمان ، غابةٌ واسعةٌ تكسو بأشجارها الكثيفة ، سلسلة الجبال والأودية الممتدّة بين « شفلد » ومدينة « دنكاستر » الجميلة . ويروى لنا التاريخ عن هذه البُقعة أنها كانت غير مرّةٍ مسرحاً لكثير من الحوادث والمخاوف ففيها شبّت بعض المعارك الدموية فى حرب الوردتين[1] ، وإلى كهوفها

(١) حرب أهلية دامية نشبت فى إنجلترا منذ سنة ١٤٥٥ إلى سنة ١٤٨٥ بين أسرتين ملكيتين هما أسرة يورك وأسرة لنكستر ، وكان شعار الأسرة الأولى وردة بيضاء ، وشعار الأسرة الثانية وردة حمراء ومن هنا جاءت التسمية . ولقد تغلبت أسرة لنكستر فى شخص هنرى السابع على أسرة يورك فى شخص ريكردوس الثالث غير أن زواج المنتصر من أليصابات ابنة إدورد الرابع زعيم أسرة يورك قد وحد مطامح الوردتين فى تاج واحد .

وغاباتها التجأت عصابات الخارجين على القانون ، أولئك الذين تُشيد الأغانى القديمة ببطولتهم ، وتمجّد ما قاموا به من باهر الأعمال .

فى هذه البقعة تجرى حوادث قصتنا هذه ، وتدور فى السنوات الأخيرة من حكم الملك « ريكردوس » الأول الذى كان رعاياه المخلصون ينتظرون عودته بفارغ الصّبر ، ليرفع عنهم نير الظلم والاستعباد . فقد كان النّبلاء يعيثون فى البلاد فساداً : يقتلون ويسلبون ويشن ّ كلٌ واحدٍ منهم الغارات على جيرانه ، ثم يعود إلى قلعته محمّلاً بالمغانم والأسلاب ، مستفيداً من الفوضى الضاربة أطنابها فى أرجاء إنجلترا ، ليحقّق قصىّ مآربه وغاياته .

ومنذ أن غزا « النورمان » إنجلترا بقيادة « وليم » الفاتح إلى عهد هذه القصّة ، وسكّان إنجلترا متنافرون متناكرون دماً ولغة وتقاليد ، منقسمون إلى فريقين : فريق غالب متعجرف وهم « النورمان » ، وفريق مغلوب يضمر للغُزاة الكره والبغضاء وهم « السّكسون » .

وكان أمراء النّورمان ونبلاؤهم هم أصحاب الحكم والسلطان ، فاستبدّوا ، إلا أقلّهم ، بأصحاب البلاد ، وسلبوهم أموالهم وأملاكهم ، ولم يتركوا للنّبلاء السكسون إلا الفُتات من ثرواتهم وأرضيهم .

تلك كانت الحال فى زمن هذه الرّواية .

ففى مساء يوم من الأيام ، بينما كانت الشّمس الغاربة تُلقى نظرتها الأخيرة الشّاحبة على إحدى الغابات الغنيّة بشجر السّنديان ، كان هناك

رجلان قد وقفا يتجاذبان أطراف الحديث، وكان أكبرهما سنًّا يرتدى صِدَاراً قُدَّ من جلد بعض الحيوان والتصق بجسمه حتى العُنُق، وفى قدميه نعل خفيفة، وعلى ساقيه مِسْماة من جلد القُنْفُذ قد لفّت حولهما حتى ركبتيه العاريتين على طريقة الإسكتلنديّين، وفى وسطه حِزام تدلّى منه كيسٌ صغير وبوقٌ صُنع من قرن جَدْى، وسكّينٌ طويلة مرهفة الحَدّ. وكان الرجل عارى الرأس قد لوّح الهواء والشمس شعره فضرب لونه إلى الحُمْرة، وأرسله جدائل على كتِفيه. وكان فى عُنُقه طوقٌ من النّحاس كتبتْ عليه باللغة السكسونية العبارة الآتية: «هذا " جُرْث " عبد " سدريك دى رازروود "».

أما رفيقه فكان يلوح أنه أصغر من «جُرْث» راعى الخنازير بنحو عشر سنوات، وكان كذلك مرتدياً ملابس لا تخلو من غرابة، وهى تتألّف من صِدار قرمزىّ اللون، مخطّطٍ برسومٍ مضحكة، ومن مِعْطَف أرجوانىّ قصير، يصل إلى فَخِذيه، ويحدّ أطرافه شريط أصفر فاقع. وكان حول مِعْصَميه أسورةٌ من الفضة، وحول عنُقه طوقٌ من النّحاس كطوق رفيقه «جرث» كتبتْ عليه العبارة التالية: «هذا " ومبا " عبد " سدريك دى رازروود "».

وكان ينتعل فى قدميه مثل نعل رفيقه، غير أن المِسْماة الملفوفة على ساقيه كانت من القماش إحداهما حمراء والثّانية صفراء، وعلى رأسه قُبَّعة

غريبة الشّكل شبيهة بالتّاج ، ركّب فيها عدد وافر من الأجراس يُسْمع لها رنينٌ قويّ عند كل حركةٍ من حركاته . وأغلب الظّنّ أن « ومبا » هذا كان مهرّجاً من المهرّجين الذين يستخدمهم السادة ليروّحوا عنهم ساعات المَلَل والبَرَم فى القصور ، ولم يكن فى حِزام « ومبا » بوقٌ ولا سكّين اللهم إلا خِنْجَراً من الخشب يتيه به ويفتخر .

رجلان يختلفان زيًّا ومظهراً اختلافَهما فى القَسَمات المعبّرة عما فى نفسيهما من شؤون وشجون ، فالأوّل يدل عبوسه على أنه رجل ينوء بأثقال الحياة وهمومها ، والثّانى تشير حركاته إلى أنه راضٍ عن مصيره فى الحياة ، مغتبطٌ بما يجود به عليه سيّده من غريب الزى والمَلْبَس .

كان هذان الرجلان يتحدّثان فيما بينهما باللغة السكسونية ، فالتفت « جرث » إلى قطيع الخنازير السّارح فى الغابة ، وهمّ بجمعه استعداداً للرّواح ، وطلب من « ومبا » أن يساعده على ذلك فقال له هذا :

ـ « لا يا عزيزى ! فملابسى الثّمينة لا تسمح لى بذلك . . . ولكن علامَ اهتمامك برعى الخنازير ؟ اتركها وشأنَها ما دام مصيرها أن يستولى عليها النّورمان ! » .

فقال رفيقه :

ـ « صدقتَ وحقِّ السماء ! فهؤلاء النّورمان يجرّدوننا من كل شىء ، ولا يدعون لنا إلا الهواء الذى نستنشقه ، وربّما منعونا منه بعد قليل . . .



كأنهم لا يكتفون بأن يزجّوا بزجرة شبابنا فى معارك طاحنة وراء البحار حتى لم يبقَ فى البلاد أحد يدفع البلاء عن السّكسون المساكين إلا سيدنا "سدريك" حفظه الله ورعاه ، ولكن أنّى له أن يقاوم "رجينلد جبهة الثّور" ذلك الحاكم الجِلْف الغليظ ؟ ! »

فقال « ومبا » :

– « خفّف عنك ، واحفظ لسانك فللأشجار آذان . . . حذارِ ! إنى أسمع وقع حوافر خيل ، فمن عسى يكون القادم ؟ » فقال « جرث » :

– « ليكن من يكون ! ألا ترى البرق يلمع ، والمطر ينذرنا برذاذه ؟ هيّا نسرع فى الرّواح فالليلة تلوح عاتية عاصفة » .

وجمع الرّفيقان قطيع الخنازير ، وخرجا به من الغابة إلى الطّريق .





٢

وما هى إلا دقائق قليلة حتى أدركتهما كوكبةٌ من الفرسان يتقدّمها رجلٌ بملابس الرُّهبان ، وآخر بملابس الفرسان الصليبيين ، يتبعهما الخدم والأتباع ، فاستوقفت القافلة الرجلين وسألهما الرّاهب :

ــ « ألا تعرفان فى هذه البُقْعة رجلاً كريم النّفس يقبل أن يضيف خادمين من خدم الله والكنيسة ؟ »

فتمتم « ومبا » فى نفسه : « يا لكما من خادمين لله والكنيسة ؛ وهذه ملابسكما تدلّ على تَرف وبَذْخ ما بعدهما ترف وبَذْخ ! » ثُم رفع صوته وقال :

– « على بضعة أميالٍ من هنا دير تستطيعون أن تتوجّهوا إليه وتقضوا فيه ليلتكم » .

فقال له الرّاهب :

– « اعلم يا عزيزى أن رجال الدّين لا يتبادلون الضّيافة ، وإنما يتركون لغيرهم من النّاس كسب أجر ضيافتهم ومثوبة إيوائهم » .

فقال « ومبا » :

– « ما أجدرهم أن يضربوا للنّاس أمثلة البرّ والمعروف » .

فقاطع الفارس كلام « ومبا » محتدًّا وقال :

– « عدِّ عن هُرائك أيها المعتوه ! ودلّنا على الطّريق المؤدّية إلى ... »

والتفت إلى الرّاهب قائلاً :

– « إلى مَن يا عزيزى " أيمر " ؟ ما اسم الرّجل السّكسونى الذى نقصده ؟ »

فقال الرّاهب :

– « " سدريك " السكسونى » .

ثم وجّه حديثه إلى « جرث » سائلاً :

– « هل نحن على مقربةٍ من منزله ؟ وما الطريق المؤدّية إليه ؟ »

فقال « جرث » :

– « الطّريق وعرة طويلة ... والسّيّد "سدريك" من عادته أن ينام

مبكراً » .

فقال الفارس :

ـ « يا له من عذر ! إن "سدريك" يشرفه أن يستقبل ضيوفاً رفعاء القدر مثلنا . وكيفما كان الأمر فضيافته إيّانا ليست مِنْحة ومنّة بل حقًّا من حقوقنا عليه » .

فقال « جرث » متهكّماً :

ـ « أنا فى حلٍّ من أن أهدى إلى قصر سيّدى أناساً يرون الضّيافة فرضاً واجباً » .

فقال الفارس مغضباً :

ـ « أتناقشنى متهكّماً أيها العبد ؟ »

ورفع سوطه يريد أن يهوى به على رأس « جرث » فاستوقفه الراهب قائلا :

ـ « ما أنت فى فلسطين يا عزيزى " بريّان " » .

والتفت إلى « ومبا » ولوّح له بقطعة من النّقود وقال :

ـ « دُلّنا أنت على قصر "سدريك" فالواجب يقتضيك أن تهدى قوماً ضلّوا الطريق » .

فقال « ومبا » :

ـ « الحقُّ يا سيدى الرّاهب أن وجه رفيقك المتجهّم قد انتزع من

رأسي آخر بـُرْجٍ للعقل فيه ، فغدوت لا أعرف شيئاً عن الطّريق التي تنشدونها » .

فقال الرّاهب :

ــ « إنّك لتعرفها حقّ المعرفة ، فلا يضيرنّك وجه رفيقي ، فهو رجل قضى شبابه فى فلسطين يخوض غمرات القتال ، فاعذره إذا كان قاسي الوجه واللسان ، وهكذا الجنود ، وإن يكن ينتمي إلى رهبانيّة فرسان الهيكل » .

فرضي « ومبا » فى آخر الأمر أن يدلّهم على الطّريق فقال :

ــ « اسلكوا هذه الطّريق الممتدّة أمامكم حتى تصلوا إلى صليب مقلوب طُرِح على مفترق أربع طرق ، فسيروا فى الطريق القائمة على شمالكم لعلكم تصلون قبل هبوب العاصفة » .

ولم ينتظر الفارسان مزيداً من الشّرح ، بل أعملا مهْمازيْهما فى شاكِلَتَي جواديهما ، يتبعهما الخدم والحَشَم ، وفى أثناء الطَّريق قال الفارس للراهب :

ــ « لماذا منعتني يا عزيزي من معاقبة هذين الأبلهين ؟ »

فقال الرّاهب :

ــ « الواحد مجنون ، والثّاني من سُلالة هؤلاء السّكسون الذين يفرحون ويغتبطون بإظهار ما تكنّه جوانحهم من حقد وبغضاء للنّورمان غُزاة

الأمس . . . ولو أنك عاقبتهما لما دلنا ذلك المجنون على الطريق المفضية إلى قصر سيّده "سدريك" ، واعلم أن "سدريك" هذا ، رجل فخورٌ غضوبٌ معتزٌّ بسكسونيته ، وبسلالته النبيلة التى ينحدر منها . . . »

فقال الفارس :

— « إذا كان على ما وصفت تمرّداً وعصياناً فلا بدّ أن تكون ابنته "روناء" من الجمال الباهر بحيث أستطيع أن أتحمّل غِلَظ أبيها وكبرياءه » . فقال الرّاهب :

— « ليس "سدريك" بأبيها ، بل هو الوصىّ عليها ، ولكنها أعزّ عليه من بنيه ، وهى كذلك من سُلالةٍ سكسونية نبيلة ، فكن لَبِقاً صبوراً وإلا قضينا الليل فى العَراء » . فقال الفارس :

— « سأكون الرّجل الجَلْد الصّبور إكراماً لجمال "روناء" أمّا أن نطرد من قصر "سدريك" ونقضى الليل فى العَراء فلا تَخشَ من ذلك بأساً ، واعتمد علىّ وعلى تابعىّ حامد وعبد الله فى أن نقِيَك مثل هذه الإهانة » .

وكانت القافلة قد وصلت إلى مفترق الطرق ، ورأت الصّليب المقلوب ولكنها رأت تحته رجلاً نائماً ، فأوعز الفارس إلى أحد خدمه بأن يَخِز الرّجل بِسنان رمحه ، فهبّ الرّجل المجهول وهو يصيح :

— « لماذا قطعتم علىّ سبيل تفكيرى وتأمّلى أيها القوم؟ » فقال الفارس

ـ « لنسألك عن الطّريق إلى " رازروود " فقال :

ـ « أنا ذاهبٌ إلى هناك ، فلو أردفنى أحدكم وراءه دللتكم على الطّريق ، فهى وَعْرة يسهل فيها الضّياع » .

فأجابوه إلى طلبه ، وسار بهم فى غير الطّريق التى دلهم عليها « ومبا » ، وما زالوا يجدّون فى السير حتى وصلوا إلى القصر الذى يسعون إليه ، فوقف الفارس حصانه أمام الباب ، ونفخ فى البوق ، فسمع له دوىّ شديد وفتحت السّماء أبوابها فى تلك اللحظة فانهمر المطر مدراراً .





٣

كان سكّان القصر مجتمعين فى البهو الكبير ، وكانوا قد جلسوا إلى مائدة الطعام وهمّوا بتناول العشاء يتوسّطهم سيّد القصر ، وحسب النظرة العَجْلى تُلقى على الرّجل ليعرف الرّائى بعض صفاته ، فقد كان مظهره يدلّ على الصّرامة ، وعلى أنه رجل تعوّد الأمر والنهى ، وكان متوسّط القامة ، عريض المنكبين ، بادى البأس والقوة وإن يكن قد قارب السّتّين . فلم يكد يجلس إلى المائدة حتى صاح فيمن حوله :

– « أين "روناء" ؟ ما بالها لم تأت ؟ » فقالت إحدى الوصيفات :

– « إنها فى غرفتها تغيّر ملابسها وستحضر بعد قليل » . فقال « سدريك » :

– « و "جرث" أين هو وقطيعه ؟ و "ومبا " أذهب يسرّى عن سادة البلاد الجدُد ؟ ! صبراً يا "ريجنلد جبهة الثور" ! ويا رفقاءه الأغرار ! فسوف أنتقم لنفسى منكم فما زلت كثير الأعوان والأتباع » .

واختنق الصّوت فى حلقه فهتف فى نفسه : « واأسفاه لم يعد حولى من ولد ! آه يا "ولفرد" ليتك لم تركب هواك وبقيت إلى جانبى ، ولكنّك هجرتنى لتحارب فى فلسطين ، وتركتنى كالسّنديانة القديمة تحمل عليها هُوج الرّياح » .

وبينا هو فى مثل هذه المناجاة ، دوّى صوت البوق فأيقظه من غفوته فصاح فى خدمه :

– « اذهبوا وتبيّنوا الأمر ، وعودوا إلىّ بالخبر اليقين . . . فلا شكّ أنها غارة جديدة للسّلب والنّهب ! »

وعاد أحد الخدم بعد دقائق يقول له إن بالباب الرّاهب « أيمر » والفارس « بريّان دى بوا جلبرت» وحاشيتهما ، وإنهم جميعاً يرجون قضاء الليل فى ضيافة سيّدى ، فقال « سدريك » وهو يصرّ على أسنانه :

– « كلاهما من النّورمان . . . ولكن أيّا كان القوم فمنزلى مفتوح الأبواب لكل طارق . . . قودوا الغرباء إلى الجناح المخصص بالضّيوف ووفّروا لهم الراحة الكاملة ، واعتنوا بخيولهم ودوابّهم ، ثم ادعوهم ليشاطرونا العشاء » .



والتفت إلى وصيفة « روناء » وقال :

ــ « قولى لسيدتك إنها فى حل من الظهور بيننا ! » فقالت الوصيفة :

ــ « سيسرّ سيدتى أن تسمع آخر أنباء فلسطين من هذا القادم إلينا ».

فامتعض « سدريك » وقال فى نفسه : « وأنا أيضاً مشتاق إلى سماع أنباء فلسطين . . . ولكن لا . . . فابنى الذى عصانى لم يعد ابنى . . . »

وبقى فترةً من الزمن ساهماً واجماً حتى انتشله من إطراقه قدوم الضّيوف ، فنهض يستقبلهم ويدعوهم إلى تناول الطّعام ، وفى هذه الأثناء دخل البهو « جرث » و « ومبا » متخفّيين متواريين لكيلا يلفتا نظر سيّدهما إليهما فيعاقبهما على تأخرهما ، فشغل القوم عنهما بدخول « روناء » تتبعها وصائفها الأربع ، فما كاد الفارس « بريّان » يراها حتى انحنى على صديقه الراهب « أيمر » وقال :

ــ « إنها لعلى جمال عظيم ! » فقال الراهب :

ــ « إنها لكذلك ، ولكن حذار فالوصىّ عليها يَحْدِجك بنظراته » .

وكانت « روناء » جميلة حقًّا ، فلمّا رأت الفارس يُطيل التّحديق فيها ، أرخت برقعها ، ولاحظ « سدريك » ذلك فقال موجّهاً الخطاب إلى الفارس :

ــ « يا سيدى الفارس ! إن وجنات فتياتنا السّكسونيات ما تعوّدت أن تتلقّى مثل هذه النّظرة الملتهبة تنبعث من مقلة فارس من الفرسان الصليبيّين » . فقال الفارس :

ـ « أرجو المعذرة إن كنت أخطأت ! » فقال الراهب مغيّراً مجرى الحديث :

ـ « لعلنا نحظى بمصاحبتكم إلى المباراة التى تعقد غداً » . فقال « سدريك » :

ـ « ما إخالنى أشهدها لأنى لا أستسيغ مثل هذا الضَّرْب من المهرجانات ، فهى عادة جديدة ما عرفها آباؤنا يوم كانوا مستقلّين فى بلادهم » . فقال الرّاهب :

ـ « كلنا أملٌ أنك متفضّل بمرافقتنا إلى " أشبى " حيث تعقد المباراة ، فالطّريق وعرة ملتوية لا ينفذ منها غير من يعرفها » .

فلم يجب « سدريك » بل رفع رأسه وقال :

ـ « أشرب نخب ضيوفى » .

فردّ الضّيوف على تحيته وزاد الفارس « بريّان » فقال :

ـ « أشرب نخب الآنسة "روناء" أجمل فتاة فى إنجلترا » . فقالت « روناء » :

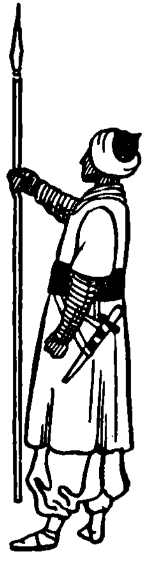
ـ « أغرقت يا سيّدى فى الوصف والثّناء ، فهلاّ سردت على مسامعنا آخر الأنباء عن فلسطين ! » فقال « بريّان » :

ـ « لا جديد يا آنستى سوى ما يشاع من عقد هدنة بيننا وبين صلاح الدّين » .

وقطع على القوم الحديث دخول بوّاب القصر ، فانحنى وسلّم وقال :

ـ « بالباب غريب يسأل الضِّيافة ! » فقال « سدريك » :

ـ « على الرَّحْب والسَّعة ! وفّروا له كل ما يحتاج إليه » .





٤

عاد مدبّر القصر بعد قليل ، وأسَرَّ فى أُذن سيّده قائلا :

— « إن الغريب هو اليهوديّ " إسحق يورك " » .

سمع الرّاهب كلمة « اليهوديّ » فصاح :

— « أيهوديٌّ فى حضرتنا ؟ ! » وتبعه الفارس « بريّان » فقال :

— « أيهوديٌّ فى حضرة مدافعٍ عن القدس وقبر المسيح ؟ ! » فقال « سدريك » :

— « على رِسْلِكم أيها الضّيوف ! إن الضيافة واجب مقدّس » .

وكان اليهوديّ فى تلك اللحظة قد دخل البهو ، وتقدّم من سيّد القصر

بخطوات بطيئة مترددة ، فرحّب به ودعاه إلى الجلوس وتناول الطعام ، فذهب إلى طرف المائدة فى خشوع وانكسار ، فنهض أحد الزوّار النكرات ، وكان ملتفاً بعباءته كمن يريد التخفّى ، وكان مظهره يدل على أنه أحد الحجّاج القادمين من بيت المقدس ، فأمسكه بيده وأجلسه إلى جانبه .

واستأنف القوم الحديث بعد صمت قليل فقالت « روناء » تسأل الفارس « بريّان » .

— « ألم يكن بين فرساننا فى فلسطين من قام بأعمال عظيمة تستحق التّنويه والإشادة ؟ » فقال « بريّان » :

— « إن الملك "ريكردوس" كان قد اصطحب معه جمهرة من الفرسان الشّجعان الأقوياء ، ولكنهم لم يكونوا فى شجاعة فرسان الهيكل وقوّتهم » .

فصاح الحاجّ المتخفّى وهو ينتفض من الغضب :

— « كلاّ يا سيدى ! إن فرسان "ريكردوس" كانوا أعظم الفرسان شجاعةً وبأساً وبلاءً حسناً ، وأبرع من شهر سيفاً فى وجه الأعداء ، لقد شهدت أنا نفسى بعد فتح عكاء ، مباراة من أقوى المباريات ، كان أبطالها "ريكردوس قلب الأسد" وخمسة من رجاله ، فكلّ واحد منهم كرّ ثلاث كرّات فى ذلك اليوم ، وطرح أرضاً خصومه الثلاثة واحداً بعد واحد وكان بين المنهزمين سبعة من فرسان الهيكل ، وسيدى الفارس "بريّان"

هو أعلم النّاس بصدق روايتى » .

فامتقع لون الفارس « بريّان » وأمسكت يده المرتعشة بمقبض سيفه عفواً دون قصد ، وسُمع صوت « سدريك » يدوّى فى البهو قائلا :

ـ « أيها الحاجّ الغريب ! إنى لأنزل لك عن سوارى الذّهبى إذا ذكرت لى أسماء أولئك الأبطال ! » فقال الحاج الغريب :

ـ « أوّلهم فى البسالة والإقدام هو "ريكردوس قلب الأسد" » .

فقال « سدريك » :

ـ « إذن أغفر له انحداره من أرومة "وليم" الطاغية ! ثم من ؟ » .

وأخذ الحاج الغريب يذكر أسماء الأبطال الخمسة الذين كانوا مع الملك وفازوا بقصب السَّبْق فى المباراة ، وكان وجه « سدريك » يتهلّل بِشْراً كلما ذكر له اسم واحد منهم ، وعرف أنه سكسونىّ أصيل ، فلما وصل الزّائر إلى ذكر البطل الخامس ، توقّف هنيهةً عن المضىّ فى الكلام ثم قال :

ـ « أمّا الخامس فقد غاب عنّى اسمه ، ولكنّنى أعرف أنه شابٌّ فى مقتبل العمر ، سُمِح له بأن يكون فى عِداد المتبارين تكملة للعدد لا اعترافاً بشجاعته » . فقال الفارس « بريّان » :

ـ « عجباً ! تخونك الذاكرة عند ذكر اسم هذا الشاب ، مع أنها لم تخنْك فى ذكر ما أدليت به من بيانٍ وتفصيلٍ ، ولكن لا بأس فسأذكر

أنا اسم ذلك الفارس الذى قهرنى بسبب كبوة جوادى ، إن اسمه " أيفنهو " وها أنا ذا أعلن على رؤوس الأشهاد أنى أتحدّاه ، فإن كان هنا بيننا ، وشاء أن يبارزنى فى مباراة غد ، قبلت مبارزته ، وتركت له اختيار نوع السّلاح » . فقال الحاج :

– « لو كان الفارس " أيفنهو " هنا لما تردّد فى قبول تحدّيك يا سيّد " بريّان " وإنى لأراهن على أنه لو عاد يوماً من فلسطين لأجابك إلى تحدّيك فَرِحاً مسروراً » . فقال « بريّان » :

– « وما موضوع رهانك؟ » فقال الحاج وهو يُرِى الحضور علبةً من العاج دقيقة الصُّنع :

– « هذه الذّخيرة . . . إنها قطعة مباركة جلبتها من دير الكرمل بفلسطين » . فقال « بريّان » وهو ينزع من عنقه سلسلة ذهبية :

– « أرجو من سيادة الرّاهب " أيمر " أن يرهن هذه السّلسلة لديه مع علبة هذا المجهول ريثما يعود الفارس " أيفنهو " إلى إنجلترا ويجيب عن تحدّى " بريّان دى بوا جلبرت " فإن جبن عن مبارزتى نقشت اسمه على الجُدران موصوماً بالخِزْى والعار » .

فصاحت « روناء » .

– « لن تظفر بهذه الأمنيّة يا سيّدى الفارس ، فسوف ينازلك " أيفنهو " وأنا الكفيلة بذلك ! » فقال « سدريك » وكان قد لزم

الصّمت طول تلك المناقشة :

ـ « "روناء" ! هذا كلام لا يجدى ، فإن لزم الأمر رهنت شرفى بشرف " أيفنهو " ، ولكن الرّهان قد تم وتوافرت فيه الشّروط ، أليس كذلك يا سيّدى الرّاهب ؟ » فقال الرّاهب :

ـ « كلّ التّوافر يا سيّدى "سدريك" فالذخيرة المباركة مقابل السلسلة الذهبية ، وسأحفظهما فى خزانة الدّير حتى نهاية التّحدّى » .

وعلى هذا انتهت المناقشة ، ثم أوى الضيوف إلى الغرف المخصّصة لهم ، وتحدّث الفارس « بريّان » مع تابعيه قليلاً ، وكان الكلام يدور باللغة العربية ، ثم سار توًّا إلى حجرته .

ولم يكد الحاج الغريب يدخل إلى غرفته حتى جاءته وصيفة من وصيفات « روناء » ودعته إلى مقابلة سيّدتها ، فلحق بها طائعاً ، ومثل بين يدى « روناء » تحيط بها وصائف ثلاث ، فصرفتهن عند مقدم الزّائر واستبقت الرّابعة التى صحبته إليها ثم قالت :

ـ « هل لى يا سيّدى أن أسألك أين تركت " أيفنهو " عندما غادرت فلسطين ؟ » فقال الغريب بصوتٍ مرتعش :

ـ « لا أعرف الفارس " أيفنهو " يا سيدتى معرفةً وثيقةً ، وكلّ ما أعرفه عنه أنه فاز على خصومه ، وكان يُعِد العُدّة للرجوع إلى إنجلترا » .

فقالت « روناء » بعد تنهدةٍ طويلة :

- « هل تعرف شيئاً عن تاريخ تلك العودة يا سيّدى الحاج ؟ وهل هو مريض ؟ » . فقال :

- « قلت لكِ يا سيّدتى إنى لا أعرف الفارس " أيفنهو " معرفة وثيقة ، ولست أعرفه إلا بالسَّماع ، فقد قيل لى إن صحّته جيّدة ، وإن وجهه قد لوّحته الشّمس ، وإنّه كثير الشّجون والهموم » . فقالت :

« أشكرك يا سيّدى على ما أطلعتنى عليه من أخبار رفيق صباى ، ولا أريد أن أحجزك طويلا عن الإخلاد إلى النّوم والراحة فَنعِم مساءً » .

فحيّاها وانصرف ، وقادته الوصيفة إلى غرفته فشكرها ثم استلقى إلى السّرير وغطّ فى سُباتٍ عميق .

استيقظ الغريب عند انبثاق الفجر ، وكان قد عرف أن الضّيف النّازل بالغرفة المجاورة هو اليهودىّ « إسحق يورك » فتسلّل إلى حجرته فى حذر وهدوء ، فصحا اليهودىّ مذعوراً وأيقن أن أحلامه المزعجة قد تجسّمت فى حقائق مخيفة ، فها هو ذا شبح جاء يخطف ماله وروحه ، فطمأنه الحاجّ الزّائر وهو يقول :

- « لا تخف يا إسحق فما أنا إلا صديق ! » فقال :

- « جزتك السّماء خير الجزاء يا سيّدى . . . لقد كنت أحلم أحلاماً مزعجة ، والحمد لله على أنها لم تكن إلا أضغاث أحلام ! »

فقال الحاج :



ـ « صَهْ يا إسحق ! وانهض وغادر هذا القصر على عجل فأنت فى خطر » . فقال :

ـ « يا إله موسى وإبرهيم أيفتكون ببائس مسكين مثلى ليس فى جيبه درهم واحد ؟ ! » فقال الحاج :

ـ « أعِرْنى سمعك ولا تضيّع الوقت سدًى . سمعت الفارس "بريّان" مساء أمس عند انصرافنا جميعاً من بهو المائدة يقول لتابعيه باللغة العربية التى أعرفها : راقبا اليهودىّ ، والحقا به عند انصرافه من هذا القصر ، واقبضا عليه وسوقاه إلى قصر "ريجنلد جبهة الثّور" فهل فهمت ؟ »

فقال اليهودىّ خائفاً هلعاً :

ـ « يا إله موسى وهارون ! إذن صدق الحُلْم ؟ » فقال الحاج :

ـ « عَدِّ عن نحيبك ولُذْ بالفِرار والقوم نيام ! هيّا اتبعنى فإنى أعرف الغابة شِبْراً شِبْراً » .

وسار الحاج باليهودىّ إلى حجرة مجاورة هى حجرة الرّاعى « جرث » فأيقظه وقال له :

ـ « أخرجنا يا "جرث" من هذا القصر أنا وهذا اليهودىّ ! هيا انهض وافتح لنا الباب » .

فدهش « جرث » من اللهجة الآمرة التى كلّمه بها الزّائر ، فلم يتحرّك ، فانحنى الحاج على سريره وأسرّ إليه ببضع كلمات باللغة

السّكسونية فقفز الرجل من سريره كمن مسّ تياراً كهربيّاً ، وسارع إلى الإصطبل ، وأسرج الدّابّتين ، وما هى إلا دقائق حتى كان الحاج واليهوديّ يجدّان فى السير مبتعدين عن غابة « رازروود » فلما تجاوزاها قطع الحاج حبل الصّمت وقال :

ـ « أترى هذه السّنديانة القديمة ؟ إنها نهاية تخوم الأرض التى يملكها "ريجنلد جبهة الثور" فأنت الآن فى مأمن من الخطر » .

فقال اليهوديّ متوسّلا :

ـ « ناشدتك الله يا سيّدى لاتتركنى ! إنى أخاف من ذلك الفارس وتابعيه ، فهم حقيقون أن يلحقوا بى الأذى فى أىّ أرض أكون عليها » .

فتبسّم الحاج وقال :

ـ « حسناً سأرافقك إلى "شفلد" ولن تعدم فيها صديقاً أو قريباً يؤويك » .

ولما وصلا إلى « شفلد » ودّع الحاج رفيقه اليهوديّ وانصرف فأمسك به اليهوديّ وقال :

ـ « لست على شىء من الثّراء بحيث أتمكّن من مكافأتك يا سيّدى ، ولكننى أستطيع أن أحقق لك أمنيّة تجول بخاطرك ! » فقال الحاج :

ـ « وما هى ؟ » فقال اليهودى :

ـ « جواد كريم وشِكّة سلاح ! » فانتفض الحاج وقال :

ـ « أيّ شيطانٍ ألهمك ذلك ؟ » فقال اليهوديّ :

ـ « لاحظت من كلامك أمس واليوم أنك تخفي تحت رداء الحجّاج نفساً أبيّة كنفوس الفرسان الأبطال » .

وأخرج اليهوديّ من جيبه ورقة بيضاء كتب فيها عبارة باللغة العبرانية وقدّمها إلى الحاجّ وقال :

ـ « كل سكان "ليسستر" يعرفون "جيرام" اليهوديّ الثريّ ، فاذهب إليه وسلّمه هذه الكلمة يعطك جواداً من أفْره الجياد ، وشكّة سلاح يتمنّاها الملوك ، وكل ما أنت في حاجة إليه للاشتراك في مباراة غد ».

فشكره ثم افترقا ودخل كل إلى « شفلد » من طريق مختلف .





٥

كانت إنجلترا فى ذلك العهد تعانى الفوضى والاضطراب ، فالملك « ريكردوس » كان سجيناً فى النمسا ولا يُعرف مكان سجنه ، والأمير «حنّا» شقيقه يدبّر المؤامرات ليطيل سجن أخيه حتى يغتصب منه العرش ، وكان الشّعب قد ضجّ من ظلم الأمراء والقوّاد فنفر كثير منه إلى الغابات يقيمون بها وينصبون فيها موازين العدالة كما يتراءى لهم ، فعُرفوا بالخارجين عن القانون .

على أن الشّعب بمختلف طبقاته ، كان ينسى همّه وبؤسه فى يوم مباراة السّلاح ، وهى مباراة من ابتكار العصر كان يشهدها الأمير «حنّا»

ويغدق على الفائزين فيها سمات البطولة والفروسية .

كانت المباراة تعقد فى « أشبى » على مرج واسع تحدّ جوانبه غابات عظيمة من الدّوح العالى قامت على مرتفعات من الأرض ، وانحدرت انحداراً خفيفاً إلى السّفوح ، فأشبهت مدرّجاً من مدرّجات المسارح . وفى جنوب المرج نصبت خمسة سرادقات مزدانة بالأعلام هى سرادقات الأبطال الخمسة الذين تحدّوا غيرهم من الأبطال ، وكان السّرادق القائم فى الوسط سرادق « بريّان دى بوا جلبرت » أشهر الأبطال فى معارك الفروسة . وفى الجهة الشّرقية من السّاحة ، أقيم على منصّةٍ عاليةٍ سرادق فخم نُصِب فيه سرير العرش ، وحفّ حوله الحرس والحشم فى انتظار مجىء الأمير «حنّا» وحاشيته . وفى الجهة المقابلة . أقيم سرادق آخر أقلّ فخامةً من سرادق الأمير ولكنّه ألطف مظهراً وأدقّ جمالاً ، ونصب فى وسطه عرش حفّت حوله الفتيات الجميلات ، وزيّن بشرائط الحرير رُسمت عليها صور أقواس وسهام وصور قلوب دامية أو محترقة إلى غير ذلك من رموز الحب والغرام ، وكان ذلك العرش عرش « ملكة الجمال والحبّ » فمن تكون ؟ إنها ستختار عن قريب من بين الفتيات ، وتتوّج ملكة على الجمال والحبّ

وبينما كانت أعالى المدرّجات تمتلئ بالنبلاء والفرسان ، كانت المقاعد السُّفلى يحتلّها مَنْ دونهم طبقة من الشّعب ، وكان فى الصفّ الأول

منهم اليهودى « إسحق » وابنته « رفقة » فقد حرص على أن يشهد هو وابنته المباراة ، غير خائف ولا وَجِل من اضطهاد الجمهور ، فقد كان فى مكان عام ممتلىء بالحرس ورجال الشّرطة ، فضلاً عن أن الأمير «حنّا» ، كان فى تلك الأيّام يفاوض جماعة من اليهود ، وعلى رأسهم «إسحق» ، فى سبيل قرض يعقده وإياهم .

أقبل الأمير «حنّا» يحيط به النّبلاء والفرسان ورجال الدّين ، واستوى على عرشه ، وأجال طرفه فى الجمهور فوقع على اليهودىّ « إسحق » فأطال التّحديق فيه ، بل أطال على الأصحّ التّحديق فى تلك الفتاة الجميلة المتشبثة بذراعه ، فالتفت إلى الراهب « أيمر » وقال :

ـ « وحقّ إبرهيم والهيكل الذى لم يعرف أخى " ريكردوس " أن يستولى عليه ، إن هذه الفتاة لهى فتاة نشيد الأناشيد ياحضرة الرّاهب " أيمر " » . فقال الرّاهب :

ـ « لتكن وردة الحقل وزنبقة الوادى ، فلا تنس يا مولاى أنها يهوديّة ، هى " رفقة " ابنة " إسحق " اليهودىّ ! »

وبعد أن صمت الأمير قليلا قال :

ـ « نسينا يا عزيزى " أيمر " أن نختار ملكة الجمال والحبّ ، أمّا أنا فإنى أنتخب " رفقة " صاحبة العينين السّوداوين الجميلتين » . فقال الرّاهب « أيمر » :

– « أتنتخب فتاة يهودية يا مولاى ؟ ! أتريد أن يرجُمنا الشعب بالحجارة ؟ ! »

وعلت همهمة فى النّبلاء من حاشية الأمير لمّا عرفوا أن سيدهم قد يؤثر بتاج المهرجان فتاةً يهوديّة ، فقدم إليه أحدهم وقال :

– « مولاى إن هذه الرغبة تغضب جميع الفرسان وتجعلهم ينسحبون من المباراة ! »

تبيّن الأمير نذر الخطر فقهقه ضاحكاً وقال :

– « ما كنت إلا مازحاً ، فانتخبوا من شئتم » . فقال الفارس نفسه :

– « دع الفائز يا مولاى ، وفقاً لأصول المباراة ، يختار ملكة المهرجان » فقال الرّاهب « أيمر » :

– « إذا كان الفائز " بريّان دى بوا جلبرت " فإنى أعرف منذ الآن اسم ملكة المهرجان » . فقال الفارس :

– « " بوا جلبرت " فارس شجاع كفىّ ، ولكنّ هناك فرساناً لا يهابون منازلته » . فقال الأمير :

– « كفى ! فالشعب يتململ من تأخير المباراة ، وكذلك الفرسان المتبارون » .

وأشار بيده إيذاناً ببدء المباراة ، فتقدّم المنادى وأعلن على الجمهور شروط المباراة وقواعدها المتّبعة ، وهى أن الفرسان الخمسة المتحدّين يجب

أن ينازلوا كلَّ من يتقدم إلى منازلتهم ، فمن يحطّم منهم خمس رماح فى خمس كرّات عُدّ الفائز فى اليوم الأول من أيام المهرجان، وتناول غار الفوز من يد الأمير ، وكان من حقّه أن يختار ملكة المهرجان لتتولى وضع إكليل النّصر على رأس الفائز فى اليوم الثّانى. ولكل فارس أجاب عن التحدّى ، أن يختار خصمه بين الفرسان الخمسة المتحدّين ، بأن يضرب بكعب رمحه التّرْس المعلّق على سُرادق كلٍّ من هؤلاء الفرسان الخمسة، فإن ضرب التّرس بسنان الرّمح كان معنى ذلك دعوة صريحة إلى النّزال بمختلف أنواع الأسلحة حتى تنتهى المعركة بينهما بالموت أو الاستسلام .

وتجرى فى اليوم الثّانى المباراة العامّة بين الفرسان بعد إذ يُقسمون إلى معسكرين ، فإذا رمى الأمير بعصاه فى ساحة المباراة ، كان ذلك إيذاناً بنهاية المباراة ، فيتقدّم الفائز الأول من عرش ملكة الجمال والحبّ لتكلّله بالإكليل الذهبىّ .

وعاد المنادى إلى مكانه ، ونزل المضمار خمسة فرسان راكبين جياداً مطهّمة ، وغارقين فى عدّة السّلاح ، فداروا فى الميدان بخطى متمهّلة ، وضربوا بكعوب رماحهم التّروس المعلّقة على سُرادقات المتحدّين الخمسة ، ثم اصطفّوا فى صف واحد عند رأس الحَلْبة .

وبرز لهم فى الحال الفرسان الخمسة المتحدّون ، وفى طليعتهم « بريان دى بوا جلبرت» و« ريجنلد جبهة الثّور» . خرج كلّ منهم من سُرادقه

ممتطياً جواداً أصيلا ، ومتدرّعاً بُعدّة كاملة من السّلاح، فاصطفّوا جميعاً في صفٍّ واحد في جنوب الحَلْبة .

وما هي إلا أن تدقّ الطّبول، وينفخ في الأبواق حتى تنطلق الجياد من ناحيتي الحَلْبة، ويشتبك كلّ فارس وخصمه، وينجلي غُبار المعركة عن فوز المتحدّين الخمسة فوزاً سهلاً، فقد أطاحوا برماح خصومهم، وقلبوهم عن أسرجة خيولهم يعضّون تراب الأرض .

وحدث مثل هذا في الدّورة الثّانية مع فرسان خمسة جُدُد لم يكن حظّهم بأحسن من حظّ الفريق الأول .

وفي الدورة الثّالثة، لم يتقدم إلا ثلاثة فرسان خافوا أن يتحدّوا « بريّان دى بوا جابرت» و« ريجنلد جبهة الثّور » فتحدّوا الفرسان الثلاثة الآخرين فكان مصيرهم مصير مَنْ تقدّمهم .

وعبثاً نادى المنادون، وحثّوا الفرسان على النّزال إكراماً لأعين السيّدات الجميلات، فلم ينبَرِ أحد . وكان «سدريك» وأهله ممن شهد المباراة، فكان يحرق الأُرَّم غيظاً ويقول في نفسه : أين رجالنا الشّجعان من السّكسون ؟ أين هم ؟ لقد حطّمهم الذّل والاستعباد .

وبقي الميدان خالياً مدّةً طويلة، فأصدر الأمير أمره بإعداد المأدبة التي تلي المباراة ، وكاد يعلن على الملأ اسم الفائز في اليوم الأول من المباراة ، لولا أن حالت بينه وبين ذلك أصوات الأبواق والطّبول، فقد

نزل الميدان متحدٍّ جديد اشرأبّت إليه الأعناق وترامت الأنظار.

كان الفارس الجديد متوسط القامة نحيفها ، لابساً درعاً محلاّة بالذهب ، وممسكاً بتُرْسٍ لا شعار عليه سوى رسم سنديانة مجتثّة ، وكلمة بالإسبانية معناها «المحروم» فدار بالميدان ، وأدّى التحية للأمير وللسيّدات ثم طار إلى سرادق «بريّان دى بوا جلبرت» وضرب التّرس بسِنان رمحه ، ومعنى ذلك أنه يدعوه إلى نزال عنيف تُستخدم فيه جميع الأسلحة .

فصاح الجمهور صيحات الدّهشة والإشفاق ، ولم يكن «بوا جلبرت» أقلّهم دهشةً لمّا خرج من سُرادقه ورأى هذا المتحدِّى المجهول فقال له :

— « هل استعددت للموت يا هذا ؟ » فقال الفارس المجهول :

— « مثل استعدادك يا سيّدى الفارس ! » فقال « جلبرت » :

— « خذ مكانك إذن من الحلبة ، وودّع الحياة ، فسوف تنام الليلة فى أعماق الجحيم ! » فقال الفارس المجهول :

— « أشكرك على النصيحة ، أما نصيحتى إياك فهى أن تستبدل بجوادك جواداً ثانياً غير متعب ، وبرمحك رمحاً جديدة » .

قال هذا وشدّ أرسان جواده ، ومشى به إلى الوراء خطوة خطوة حتى وصل إلى رأس الحلبة ، فضجّ الجمهور بالتصفيق وهتاف الاستحسان .

ورأى « بوا جلبرت » مع ما هو عليه من اعتداد بقوّته وفروسيّته أن لا يحقر شأن هذا المجهول ، فركب جواداً جديداً ، واعتمد رمحاً جديدة ،

وخرج إلى ملاقاة هذا الخصم المجهول . وعند ما نفِخ فى البوق ودُقّت الطبول هجم كلٌ على خصمه بسرعة البرق مُشْرَعَ الرّمح ، فتقابلا فى وسط الحلبة وسُمِع لصِدامهما دوىّ هائل تحطّمت فيه رمح كلٍ منهما ، وطارت شظاياها وكبا الجوادان تحتهما ، غير أن مهارتهما أقالت الجوادين من العِثار . وبقى الفارسان برهةً يتبادلان النظرات تتطاير بالشّرر من فتحتى قناعيهما الحديديّين ، ثم عاد كلٌ إلى مكانه فزوّده تابعه برمح جديدة .

أعلنت الأبواق استئناف القتال ، فحلّ الصمت الرّهيب محلّ الهُتاف ، وكان الهجوم الثّانى مثل الهجوم الأول شدّةً وعنفاً ، ولكن اختلف عنه فى النّتيجة ، فقد سدّد « بوا جلبرت » سنان رمحه إلى وسط تُرس خصمه ، وطعنه طعنةً شديدة قويّة ترنّح الفارس المجهول على أثرها ، واستلقى إلى كَفل جواده ، على أن الضّربة القويّة لم تُسقطه عن سَرْج الجواد فاعتدل فى جلسته سريعاً ، وغيّر خُطّة الهجوم ، فبدلاً من أن يُسَدِّد سِنان رمحه إلى قلب الترس سدّده إلى الخُوذة ، وكال لخصمه طعنة نجلاء انقطع معها حِزام الجواد فكبا وانطرح الفارس أرضاً ، فتخلص « بوا جلبرت » من الرّكاب سريعاً ، ونهض واقفاً ، واستلّ حُسامه وقد جُنّ جنونه من هُتاف الاستحسان والإعجاب الذى غمر به الجمهور ذلك الفارس المجهول .

ومعنى استلال الحُسام أن النِّزال سينقلب إلى معركة لا تنتهى إلا بموت أحد المتبارزين أو استسلامه ، فقبل الفارس المجهول التّحدّى ،



وترجّل عن جواده، وجرّد سيفه، وهمّ كلٌّ بصاحبه . وكاد القتال يبتدئ لولا أن نزل حكام المباراة إلى الساحة ، ورماحهم مُشْرَعَة فى أيديهم ليفرّقوا بين المتبارزين . ذلك أن قوانين الفروسية لا تسمح بمثل تلك المعركة فى مثل تلك الظروف .

أغمد كلّ من الخصمين سيفه فقال « بوا جلبرت » للفارس المجهول والبغضاء تتناثر على جوانب كبريائه المحطّمة :

– « سوف نلتقى ! » فقال الفارس المجهول :

– « إنى رهن إشارتك فى كل زمان ومكان ، وعلى أتم الاستعداد لمنازلتك راجلاً أو راكباً ، وبالسّيف أو بالرمح أو بالفأس » .





٦

أقبل حكّام المباراة على الفارس المجهول يطلبون إليه أن ينزِع عن وجهه القناع ، ليتسلّم جائزة الفوز من يد الأمير ، فاعتذر عن ذلك ولم يلحّ الحكّام فى طلبهم ، فقد كان من عادة بعض الفرسان النّبلاء فى ذلك العصر، أن يتخفّوا ويتنكّروا وفاءً لنَذْر ينذرونه، أو سعياً فى تحقيق بعض الأعمال الباهرة .

ولما علم الأمير باعتذار الفارس المجهول عن كشف قناعه ازداد فضولا فى معرفته ، وأخذ يباحث الحاشية فيمن يكون هذا البطل ، فذكر كلّ واحد منهم اسماً من أسماء الأبطال المعروفين الذين تخلفوا عن المهرجان فقال أحدهم :

— « ليس فى إنجلترا إلا بطل واحد على مثل هذه القوّة والشّجاعة والمهارة ، هو الملك " ريكردوس قلب الأسد " » .

فأصفرّ وجه الأمير «حنّا» عند سَماعه اسم أخيه ، والتفت إلى الفرسان المحيطين به ، وذكّرهم بالوعود التى قطعوها له بأنهم يؤيّدونه وينصرونه على أخيه فقال فارس منهم :

— « ما أرى زميلى إلا مخطئاً فى ظنّه ، أنسيت يا مولاى أن أخاك " ريكردوس " عملاق من العمالقة ، فأين قامته المديدة ، ومنكباه العريضان ، وضخامة هيكله من هذا الفارس المتوسّط القامة ، النّحيل البدَن ؟ ثم ألا يرى مولاى أن قد طال انتظار البطل لنيل الجائزة ؟ »

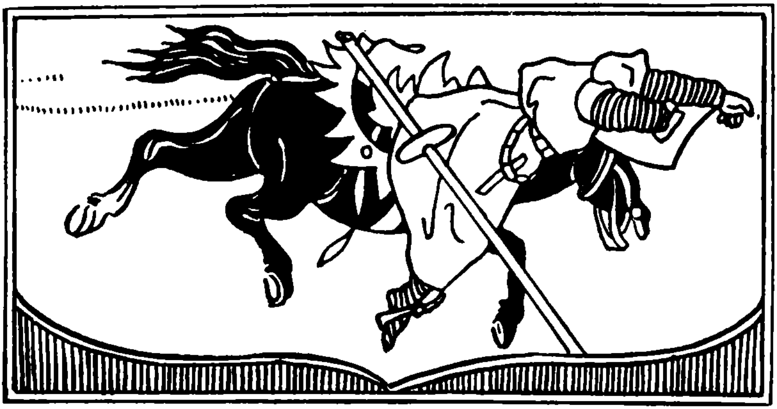
فتنفّس الأمير الصُّعداء لمّا أيقن أن الفارس المجهول ليس أخاه « ريكردوس » وأشار بيده إلى البطل أن اقترب فاقترب وسلّمه أعنّة جواد أصيل مطهّم هو جائزة الفائز ، فانحنى المجهول شاكراً ، ودون أن يضع رجله فى الرِّكاب قفز إلى صهوة الجواد واستوى على السّرج ، وأشرع رمحه وطاف ساحة النِّزال مرّتين ، مبدياً من ضروب البراعة ما خلب به لبّ الجمهور . ولمّا وصل فى الطَّوْفة الثّانية إزاء منصّة الأمير استوقفه هذا وقال :

— « أيها الفارس البطل ! إن من قواعد المباراة أن يمنح الفائز حقّ اختيار ملكة الجمال والحبّ لترأس المهرجان فى اليوم التالى . . . والآن امدد رمحك » .

فمدّ الفارس المجهول رمحه فعلق الأمير على سنانه إكليلاً من الحرير الموشّى بالذّهب، وعاد الفارس يطوف بالنظّارة ، ويستعرض الفتيات ، ويرى كل واحدة منهن تحاول أن تلفت أنظاره إليها حتى وقف بجواده عند المدرج الجالسة فيه « روناء » فحنى رمحه قليلا ، ووضع الإكليل عند قدميها ، فدوّت الساحة بالهُتاف ، ودقّت الطبول معلنة تتويج ملكة الجمال والحبّ ، وبلغ الفرح من « سدريك » الجالس إلى جانب « روناء » مبلغاً عظيما ، فنثر على النظارة كل ما كان فى جيوبه من قطع النّقود .

وجاء الأمير « حنّا » إلى حيث كانت « روناء » وهو يخفى امتعاضه ، فهنّأها على فوزها بالتّاج كما هنّأ الفارس المجهول وكان لا يزال واقفاً فى مكانه ثم لوى الأمير عنان جواده ، وخرج من الحَلْبة تتبعه الحاشية ، وهكذا ارفضّ المهرجان فى اليوم الأول .





٧

ما كاد الفارس المحروم يدخل خيمته، ويتلقّاه تابعه بالتّرحيب والتّأهيل حتى طرق بابَ خيمته سُوّاس الفرسان الخمسة المغلوبين، جاءوا يقودون إليه الجياد الخمسة التى ركبها الفرسان فى المباراة، ويقدّمون له معها عُدَد السّلاح التى استخدموها، فهذا كله من نصيب الفائز طبقاً لما تقضى به قوانين الفروسية. فله أن يستولى عليه جزاء وِفاقاً، أو أن يقبل بدل تلك الأسلاب مبلغاً من المال. فخرج إليهم الفارس المحروم وقال لأربعة من السواس:

ـ «لا أريد أن أحرم سادتكم جيادهم وأسلحتهم الحبيبة إليهم،

فإنى أقبل أن أفتديها بالمال الذى تعرضونه ، ويسرّنى أن تحتفظوا به هديةً منى لكم » .

ثم التفت إلى السّائس الخامس وكان سائس الفارس « بوا جلبرت» فقال له :

ــ « أما أنت فقل لسيّدك إنى لا أقبل منه جواداً ولا سلاحاً ولا فدية ، فنزاعنا لم ينتهِ ولن ينتهىَ ما لم نتبارز بالسّيف أو بالرمّح راجلَيْن أو راكبَين . لقد تحدّانى هو إلى ذلك وإنى عند التحدّى . » فقال السائس :

ــ « إن سيّدى يعرف أن يبادلك تحيّةً بتحيّةٍ وطعناً بطعن ، وإنى تارك لديك الجواد والسّلاح ما دمت قبلت الفدية من الفرسان الآخرين ، فمحال أن يقبل سيّدى هذا الوضع ! » فقال الفارس المحروم :

ــ « عُدْ بهما إليه فإن أبى أن يسترجعهما فاحتفظ بهما أنت هديّةً منى إليك » .

وانصرف السواس الخمسة على الأثر ، وخلا الفارس المحروم بتابعه ولم يكن إلا « جرث » فتبادلا الأحاديث عن المباراة وحوادثها ، ثم تناولا شيئاً من الطعام ، وكان الليل قد نشر ذوائبه فاستسلما إلى رقاد عميق .

وفى الصباح التالى بدأت الجماهير تَفِد على ساحة المباراة وتأخذ أمكنتها من المدرَّجات ، وبدأ الحكام المشرفون على تنظيم المباراة يقيّدون أسماء الفرسان الراغبين الاشتراك فى المباراة ، فبلغ عددهم الخمسين ،

فقسموهم إلى فريقين، وعيّنوا الفارس المحروم رئيساً للفريق الأول بناء على ما تقضى به قوانين المباراة لأنه الفائز فى مباراة اليوم الأول، وعيّنوا « بوا جلبرت » رئيساً للفريق الثانى لأنه كان أبرز المتبارين بعد الفارس المحروم.

ودقّت الطّبول معلنةً قدوم الأمير، فاستوى على عرشه تحفّ به الحاشية، وبعد قليل أقبل « سدريك » و « روناء» فجلس « سدريك » فى أحد المقاعد، وخفّ الأمير إلى استقبال « روناء » وساعدها على الترجّل من ظهر جوادها ثم قال للفرسان المحيطين به:

— « حيّوا معى أيها السّادة ملكة الجمال والحبّ ! »

فحيّوها جميعاً وساروا خلفها حتى استوت على العرش المخصّص بها تحيط بها الأميرات والنّبيلات، ودقّت الطّبول، وأقبل المنادى يعلن قواعد المباراة وشروطها: فالرّمح والسيف والفأس أسلحة مسموح بها، أما الخِنْجَر فلا . . . ولما انتهى المنادى من إعلان الشّروط، تراجع الفرسان كلٌّ إلى مكانه، واصطفّ كلّ فريق فى صفّين من كلّ جانب من جانبي الحلبة، فيا له من منظر رائع: خمسون فارساً استووا على أسرجة خيولهم كقِطَع من الفولاذ، وخمسون رمحاً مشرعة تلمع أسنّتها فى ضياء الشّمس، وخمسون جواداً تملأ الجوّ صهيلا، فما إن أعطيت إشارة بدء المباراة، حتى هجم الصف الأول من كل فريق، فالتحم الفرسان فى

وسط الحلبة ، وسُمع لصدامهم وقعقعة سلاحهم دوىّ بلغ عَنان السماء ، وأثارت سنابك الخيل سحباً من العِثْيَر ، فاختلط على النّظّارة الأمر ولم يتبيّنوا الغالب من المغلوب إلا بعد برهة من بدء النِّزال ، فرأوا نحو نصف الفرسان منطرحين إلى الأرض مثخنين بالجراح لا يبدونَ حراكاً، والنصف الآخر بين متحامل على نفسه وخارج من الحلبة ، وبين واقف على قدميه ينازل خصمه بالحُسام المسلول .

وعندئذ هجم الصف الثانى من كل فريق ، واشتبك كلٌّ بخصمه فى نزال عنيف . وأدرك الفارس المحروم و« بوا جلبرت» أن مصير النّصر أو الهزيمة يتوقّف على نتيجة اشتباكهما معاً ، فانقضّ كلٌّ منهما على الآخر يريد أن يفرغ من صاحبه ، غير أن امتلاء الميدان بالفرسان يكرّون ويفرّون من كلّ جهة وجانب ، حال دون تفرّغ الزّعيمين للنِّزال المنفرد ، فلم يتمكّنا من ذلك إلا بعد أن خلا الميدان من الفرسان المهزومين فشدّ كلٌّ على صاحبه فى براعة متكافئة أثارت حماسة الجمهور فهتف طوراً لهذا وطوراً لذاك .

وعلى حين فجأة ، خطر ببال فارسين عملاقين من فرسان فريق « بوا جلبرت» كان أحدهما «ريجنلد جبهة الثور» أن يخِفّا إلى نجدة زعيمهما ويقضوا هم الثلاثة على هذا الخصم العنيد فيسهل على فريقهم عندئذ الفوز بقصب السّبق ، فكرّا كرّة واحدة على الفارس المحروم ، وكادا ينالان منه

لولا تململ الجمهور من معركة غير متعادلة ولامتكافئة الجانبين ، ينازل فيها فارس واحد ثلاثة من الفرسان، وينقضّ اثنان منهما على غرّة ، فتعالت الأصوات من كل جانب تقول : «حذارِ أيها الفارس المحروم حذارِ ! » فتنبّه هذا للخطر المنقضّ عليه فعالج خصمه بضربة شديدة، وتراجع إلى الوراء ليستقبل خصميه الجديدين ، وبقى يداور الثّلاثة هاجماً مرة مدافعاً مرّات ، حتى أشفق عليه حكام المباراة فطلبوا من الأمير أن يرمى بعصاه فى ساحة المباراة ، ويجنّب هذا الفارس الشجاع هزيمة لا يستحقها ، فرفض الأمير وقال :

ـ « لينَلْ هذا المتنكّر جزاءه ، فحسبُه أنه فاز على فرساننا فى مباراة أمس » .

ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان ، فقد كان فى فريق الفارس المحروم فارس متدرّع بالسواد ، ممتطٍ جواداً أسود ، وممسك بيده تُرساً لا شعار عليه ، وكان يبدو عليه البأس والقوة ولكنه حتى تلك اللحظة ما حرّك ساكناً كأنه ليس من المتبارين المتنافسين ، مكتفياً بصدّ الهجوم إذا هوجم ، فلم يتعقّب فارساً ولا تحرّك من مكانه حتى أطلق عليه الجمهور لقب « الأسود الخامل» .

ولشدّ ما كانت دهشة الجمهور عندما رأى « الأسود الخامل » يتحرك بل يطير إلى وسط المعركة لينقذ زعيمه ، فبينا كان الفارس المحروم

يشد على « بوا جلبرت» ويضيّق الخناق عليه، كان « ريجنلد جبهة الثّور » قد انقضّ بسيفه من الخلف على الفارس المحروم ، غير أن « الأسود الخامل » كان أسرع من البرق ، فانقضّ على « جبهة الثّور» انقضاض الصّاعقة ، وكال له ضربة شديدة جندلته هو وجواده إلى الحضيض ، ثم انثنى إلى الفارس الثانى وانتزع الفأس من يده وأهوى بها على أم رأسه فسقط جثّة هامدة إلى جانب رفيقه ، ثم عاد « الأسود الخامل» إلى مكانه فى خطى بطيئة كأن مهمّته قد انتهت بصرع الفارسين .

ونشط الفارس المحروم بعد إذ تخلّص من خصميه، وشدّد النّكير على « بوا جلبرت » فتعثر به الجواد وسقط إلى الأرض ورجلاه فى الرّكاب ، فأسرع الفارس المحروم وترجل ، وخف إلى خصمه الذى رماه القدر تحت رحمته ، فعزّت على الأمير هزيمة « بوا جلبرت » فرمى بعصاه فى ساحة المباراة . . . وهكذا انتهت أشهر مباراة فى ذلك العصر ولم يبق إلا إعلان اسم الفائز ، فأراد الأمير أن يكون غار النصّر من نصيب « الأسود الخامل » فاحتجّ الحكّام وقالوا إن الفارس المحروم قد أسقط ستّة فرسان وهزم رئيسهم هزيمة منكرة ، فلم يبال الأمير بالاحتجاج وأمر المنادين باستدعاء الغالب.

ولكن الغالب لم يحضر ، فقد رآه بعض النظارة يتوغّل على مَهَل فى الغابة بعد نهاية المباراة، وأعاد المنادون الكرة مَثْنى وثُلاثَ ورُباعَ على غير طائل ، فاضطر الأمير إلى الاعتراف بحقوق الفارس المحروم ، فدوّت

السّاحة بالهُتاف والتّصفيق، وصحب الحكام الفارس المحروم إلى عرش « روناء » ولاحظوا عليه أنه يمشي مترنّحاً ، فلما وصل إلى عرش الحسناء، جثا بين يديها ، وهمّت هي بوضع الإكليل على خُوذته فصاح أحد الحكّام :

ــ « تقضي قوانين الفروسة أن يوضع الإكليل على الرأس لا على الخُوذة يا سيّدتي ، فلا بدّ أن يحسر الفارس عن رأسه الخوذة واللثام» .

فتمتم الفارس المحروم ببضع كلمات خافتة ، وكانت أيدي الحكام قد امتدت إلى خوذته فنزعتها ، فبدا وجه شاب جميل في الخامسة والعشرين من عمره ، ولكن وشّحته صفرة كصفرة الموت، فانطلقت من « روناء » صيحة عميقة ولكنها تمالكت نفسها وقالت :

ــ « أيها الفارس العظيم تقبل هذا التاج فأنت به جدير خليق ! »

فحنى الفارس رأسه وقبّل يد الملكة ثم خرّ مغشيًّا عليه عند قدميها، فقد كان مصاباً بطعنة بليغة في جنبه ، فخفّ إليه الفرسان الذين كانوا حوله ونزعوا عنه درعه ونقلوه إلى خيمته .

عرف القوم أن الفارس الفائز هو « أيفنهو» فطار اسمه من فم إلى فم حتى وصل إلى سمع الأمير فاضطرب ، لأن « أيفنهو» كان الرفيق الأمين لأخيه « ريكردوس» .

وفي هذه الأثناء تقدّم من الأمير أحد الحجاب وسلّمه رقًّا مطويًّا



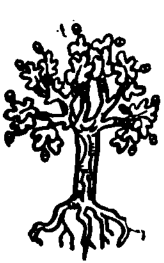
فقال الأمير :

ـ « ممن هذا الرّق ؟ » فقال الحاجب :

ـ « من فرنسا يا سيّدى . جاء به رجل فرنسىّ » .

ففتح الأمير الرّقّ ولم يكن يحتوى إلا على عبارة واحدة هى : «حذارِ فالشَّيطان قد أصبح مطلق السَّراح » .

فشحب لون الأمير ، وكانت الرّسالة من ملك فرنسا شريكه فى المؤامرة على « ريكردوس » فدفع بها إلى أعوانه وتضاربت فيها الآراء بين مكذّب ومصدّق ، وقرّ قرارهم على إلغاء المأدبة التى دعا إليها الأمير فى مساء ذلك اليوم ليتمكنوا من تدبير أمورهم وتنظيم صفوفهم استعداداً لملاقاة الملك « ريكردوس » ولكنهم مالوا إلى قول القائل : اليوم خمر وغداً أمر ، فارفض المهرجان وتفرق النبلاء والفرسان على أمل اللقاء فى المأدبة التى ستقام بعد ساعات فى قصر « أشبى » . . .





٨

أقيمت المأدبة فى مساء ذلك اليوم فى قصر « أشبى » وهو قصر يملكه أحد الفرسان الذين يحاربون فى فلسطين ، غير أن الأمير لم يتورع فى غياب صاحب القصر عن أن يضمّ القصر والأرض المحيطة به إلى أملاكه ، ولقد أراد الأمير أن تكون تلك المأدبة من أفخم المآدب التى عرفها التّاريخ ، وأن تكون مظهراً من مظاهر البَذْخ والتّرف والإنفاق .

وأرسلت الدعوات إلى جمهرة كبيرة من أعيان النّورمان والسّكسون ، وشاء الأمير فى تلك الليلة أن يتحبب إلى السكسون لعله يظفر منهم بالرّضى والتأييد ، فيسير فيما عزم عليه من خلع الملك والاستيلاء على عرشه .

وهذا ما جعله يرحّب أجمل التّرحيب بالسّكسونى « سدريك » ولا يسخَر من ملبسه الذى يحافظ به على عادات أجداده وتقاليدهم ، كما أنه عبّر عن أسفه على تخلّف الآنسة « روناء » تعبيراً بالغ الرقّة والأدب .

وقضى المدعوّون فترة طويلة من الوقت يأكلون ويشربون كل ما لذّ وطاب ، وينعمون بما حفلت به المأدبة من ذوق رفيع وزينة باهرة . وقبيل نهاية المأدبة دارت أحاديثهم على المباراة وبطولة الفرسان الفائزين فيها ، فكان إعجابهم محصوراً بالفارس « الأسود الخامل » الذى انقضّ انقضاض الصواعق على خصومه ، كما كان محصوراً على الأخص بالفارس المحروم فأطنبوا فى وصف شجاعته وبطولته . وكان الأمير « حنّا » مشغولاً عن كلّ هذا بما كان يعتمل فى صدره من عوامل الجشع والخيانة والخوف ، فأفاق قليلا من سهوه ، وطرقت مسمعه نُتَفٌ من الأحاديث الدائرة فرأى أن يشاطر القوم حماستهم للبطولة وإعجابهم بالأبطال فرفع كأسه وقال :

ـ « أشرب على صحّة الفائز "ولفرد أيفنهو" الذى حرمتنا جراحه أن نراه بيننا الليلة ، وأشرب كذلك على صحّة والده "سدريك" فذلك الشّبل من هذا الأسد » .

فنهض « سدريك » ولكنه لم يشرب كأسه ولا أجاب عن التّحيّة بل قال :

ـ « لا يا سيدى الأمير ! إنى تبرّأت من ابنى "ولفرد أيفنهو" لأنه



عصانى وعقّ تقاليد أجداده ! » .

فتظاهر الأمير بالدّهش وقال :

— « أيكون مثل هذا الفتى المقدام متمرّداً عاصياً ؟ ! » فقال «سدريك» :

— « لقد عصانى وانضمّ إلى الفرسان الصليبيين ليقضى حياة اللهو والقَصْف فى فلسطين » .

وشاء الأمير أن يمعن فى التفرقة بين الوالد وابنه فرفع كأسه وقال :

— « أشرب على صحّة النبيل السّكسونىّ "سدريك" الذى يأبى أن يعترف بابنه العاقّ ! » ثم التفت إليه وقال :

— « هلاّ شربت نخب أحد النّورمان يا عزيزى "سدريك" ؟ »

فقال هذا :

— « ليس فى النّورمان رجل يستحقّ أن أشرب كأسى على صحّته (همهمة وتذمّر فى الحاضرين) وطلبك هذا يا سيّدى الأمير معناه أنك تطلب من المغلوب تمجيد الغالب ، فسأكون عند رغبتك ، وإنى لأعلن على رؤوس الأشهاد أن الرجل النّورمانى الوحيد ، المعروف بالنّبل والفضل والشجاعة ، والجدير بالتّجلّة والتكريم والولاء ، هو "ريكردوس قلب الأسد" هذه كأسى أشربها على صحة مليكنا "ريكردوس" قلب الأسد ومن لا يَحْذُ حذوى يكن خائناً » .

فاضطرب الأمير اضطراباً ظاهراً ، ورفع كأسه بيد مرتعشة ، وفعل

فعله جميع الحضور وشربوا كلّهم نخب الملك . . .

وانتهت المأدبة على مثل هذا الجوّ من الضّيق والاضطراب ، وانصرف المدعوّون ، وبقى منهم الأعوان المقرّبون إلى الأمير فأخذوا يتشاورون معه ، ويقلّبون وجوه الرأى فى الخُطّة التى يجب أن يتّبعوها إقصاءً للملك « ريكردوس» عن عرشه . . .





٩

خرج الفارس الذى لقّبه الجمهور « بالأسود الخامل » من ساحة المباراة دون أن يشعر به أحد ، وتوغّل فى الغابات حتى هبط عليه الليل فبات ليلته فى أحد الفنادق الصّغيرة، ثم استأنف مسيره فى الصباح بعد أن عرف من صاحب الفندق أنباء المباراة ونتائجها .

كانت وجهته إلى الشمال غير أن المسالك والدّروب كانت من الكثرة والتّفرّع بحيثُ مشى على غير هدًى طول نهاره، حتى إذا انتشر الليل لمح عن بعدٍ نوراً ضئيلاً فسعى إليه فإذا هو ينبعث من كوخ صغير يسكنه أحد الرّهبان فاستضافه تلك الليلة .

أمّا « أيفنهو » فإنه لمّا وقع مغشيًّا عليه ، تحرّكت عاطفة الأبوة فى صدر أبيه « سدريك » وهمّ بأن يسعى إليه ويحمله على ذراعيه ولكن كبرياءه أبت عليه أن يستجيب لعاطفته فقد شقّ عليه أن يحتضن ابناً كان قد أنكره وتبرأ منه ، وشق عليه كذلك أن يلقى ابنه ممدداً على الأرض ولا يطير إليه شفيقاً مسعفاً ، فظلّ تصطرع فى فؤاده العواطف المتضاربة حتى أمر أحد رجاله بأن يذهب إلى خيمة « أيفنهو » ويبذل له المساعدة اللازمة وينقله إلى « أشبى » حالما تتفرّق الجماهير .

ولما أطاع الرجل أمر سيده وتمكّن من الدخول إلى خيمة « أيفنهو » لم يعثر له على أثر ، فسأل عنه وألحف فى السؤال فعلم أن الفارس المحروم قد نقلته إحدى السيدات إلى مركبتها وسارت به وليس مَن يعرف الجهة التى قصدتها ، فعاد يخبر سيّده « سدريك » بما وقف عليه من أنباء ابنه المخطوف ، فاستشاط غضباً وازداد سخطاً على ابنه الذى يرمى بنفسه فى أحضان النّورمان، وكانت الآنسة « روناء » بعد ارفضاض المهرجان قد لحقت « بسدريك » فأنهى إليها ما عرف من أخبار « أيفنهو» فاصفرّ وجهها ، وشعر « سدريك » بما يخالجها من عاطفة الغيرة فقال لها :

— « دعى عنك ذكر هذا العاقّ فما هو أهل أن تخصّيه بالمحبّة والحنان! تعالى نستعدّ للذهاب إلى مأدبة الأمير » . فقالت :

— « اعذرنى يا عمّاه فما أرانى قادرة على شهود المأدبة ! »

وهكذا لبى « سدريك » الدّعوة وحده ولم تصحبه « روناء » بل بقيت تنتظره فى كوخ أحد الرّهبان .

ولما انتهت المأدبة خرج هو ورجاله ، وركبوا خيولهم وانطلقوا بها يجتازون الغابات ويسلكون الدّروب فى طريقهم إلى قصر « سدريك » معرّضين أنفسهم فى جنْح الدُّجى لهجمات الخارجين على القانون المعتصمين بالمخابئ والكهوف ، وكان ركب « سدريك » قد عرّج على كوخ الرّاهب فانضمّت « روناء » إليهم .

وبينما كانت القافلة تجدّ فى السير ، طرق مسامع أعضائها صوت تنهّد ونحيب ، فتوجّهوا إلى مصدر الصوت فشاهدوا مركبة واقفة قد فكّ عنها خيولها ، ورأوا فيها فتاة تبكى وتنتحب وقد ارتدت ثياباً فاخرة يتجلّى فيها الزىّ الشرقىّ اليهودىّ ، ورأوا إلى جانب الفتاة رجلا عجوزاً يفرك يديه لهفةً وحسرةً ويندب ويستشفع بجميع قدّيسى العهد القديم .

كان الرجل « إسحق يورك » فأخذ يقصّ على « سدريك» ورجاله أنه استأجر فى « أشبى » هذه المركبة ومعها ستّة حرّاس ليوصلوه إلى « دنكاستر » سليماً معافى ، وليدرأوا عنه اللصوص وقطّاع الطرق ، غير أنهم لم يكادوا يدخلون هذه الغابة حتى تركوه ، وفكّوا أربطة الخيول ، واستولوا على معظمها وهربوا بها ، وزاد الرجل فقال :

ـ « لقد أرسلتكم السماء يا سادة فهل تتفضّلون بتأمين سفرنا حتى نصل



إلى غايتنا ولا سيما أن معنا جريحاً فى حاجة إلى العناية والرّاحة ؟»

وقبل أن يسمع الجواب قفزت الفتاة من المركبة وكانت ابنته « رفقة » وانطرحت على قدمى « روناء » تبتهل إليها وتقول :

ـ « خذونا يا سيّدتى فى حمايتكم ، لا من أجلى ولا من أجل هذا الشيخ الطاعن فى السّن بل من أجل هذا الجريح الملقى فى المركبة ، فوالله لو رفضت حمايتنا وأصيب بمكروه لتقضينّ العمر كله نادمة حزينة ! »

فأثّرت لهجة الفتاة فى نفس « روناء » والتفتت إلى « سدريك » قائلة :

ـ « حرام أن نترك هذه الفتاة الجميلة عرضة للأخطار ، ونترك معها هذا العجوز الذى لا حول له ولا طول وهذا الجريح الذى يتلوى ألماً »

فوافق « سدريك » على مصاحبتهم ، فقطروا بعض الخيل إلى المركبة وسار الرّكب يخترق الوهاد والنّجاد فوصل فى طريقه إلى درب ضيّق لا يتسع لأكثر من فارسين وينتهى بمستنقع قامت على أطرافه أشجار الصّفصاف ، فما كاد القوم يسلكون ذلك الدّرب حتى أحاطت بهم من كل جانب جماعة وافرة العدد من الرّجال المسلّحين لا تجدى معها المقاومة فتيلاً ، فكانوا يزدادون عدداً دقيقةً بعد دقيقة ، ويجأرون ويصيحون بما يجأر به ويصيح الرّجال الخارجون على القانون ، فتصدّى «سدريك» لاثنين منهم وأعمل فيهما سيفه البتّار ولكنه بوغت من الخلف بثلاثة رجال انقضوا عليه ، فأنزلوه عن جواده وجرّدوه من سلاحه ، أمّا رجاله فاستسلموا

باستسلام سيّدهم، وكان فيهم المهرّج « ومبا » فتسلل خفيةً ولاذ بالفرار متوارياً وراء الأشجار ، فما إن ابتعد قليلاً عن ميدان الأسر والنّزال حتى سمع صفيراً خافتاً أعقبه صوت رجل يقول له :

ــ « ما معنى هذا يا " ومبا " ؟ » فتبسّم وقال :

ــ « أهذا أنت يا " جرث " ؟ » فقال :

ــ « نعم أنا ! ألا أخبرتنى عن سبب هذه الضجّة ؟ » فقال :

ــ « هو ما يحدث كل يوم فى الغابات يا عزيزى ! حسبك أن تعلم أن سيّدنا " سدريك" والآنسة " روناء " وجماعة من رجالنا وقعوا أسرى فى أيدى السّالبين النّاهبين ! » فقال « جرث » :

ــ « نحن اثنان فلو هاجمنا المغيرين من حيث لا يعلمون ولا يتوقعون لفرّوا هاربين . هيّا اتبعنى » .

وقبل أن يخرج « ومبا » بالصّمت عن لا ونعم ، برز لهما رجل لم يعرفا من أين هبط عليهما ، فأيقنا من هندامه ، ولو ثميناً ، ومن البوق المعلّق فى وسطه أنه أحد الآبقين الخارجين على القانون فقال لهما :

ــ « ما هذه الجلبة ؟ ومن يجسر أن يأسر الناس فى هذه الغابات ؟ انتظرانى قليلا لأتبيّن الأمر » .

ومضى إلى حيث يسمع صهيل الخيول وقعقعة السّلاح فقال « ومبا » لرفيقه « جرث » :

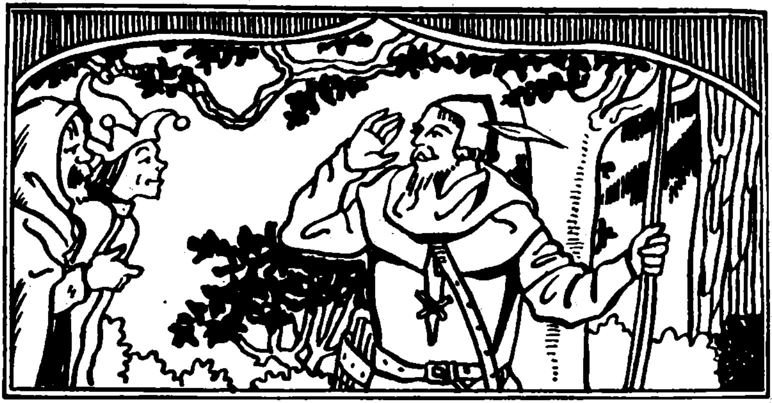
ـ « أننتظره أم نريه أن لنا سيقان النّعام ؟ يخيل إلىّ أنه واحد من هؤلاء المتمردين المعتصمين بالغابات » . فقال « جرث » .

ـ « هبه الشيطان فماذا نخشى لو انتظرناه ! قد يكون بين اللصوص قوم كرماء النفس ! »

وعاد الرجل بعد قليل فقال :

ـ « لقد تبيّنتهم وعرفتهم ولا قِبَلَ لنا بمهاجمتهم ، فهم أكثر عدداً وأوفر عتاداً ، ولكن محال أن نترك النبيل "سدريك" وجماعته فريسة بين أيديهم فلا بد لنا من رجال يساعدوننا على إنقاذهم وإنى لأعرف أين أجدهم . هيّا بنا ! »





١٠

بعد مسير ثلاث ساعات وصل « جرث » و « ومبا » ودليلهما الغريب إلى غابة كثيفة كان فى وسطها سنديانة ضخمة تظلّل ستّة رجال مستلقين إلى الأرض يغطّون فى النّوم ، وكان على بعد منهم رجل سابع يقوم بالحراسة فى ضوء القمر السّاطع . فلما سمع وقع أقدام نفخ فى بوقه نفخة الخطر ، فهبّ زملاؤه واقفين وأشرعوا أقواسهم ، غير أنهم ما كادوا يتبينون ذلك الرجل الغريب حتى عرفوا فيه زعيمهم فقابلوه بالتحيّة والإجلال ، فسألهم عن رفقائهم فأخبروه بموقف كل منهم فقال :

— « تفرّقوا يا أصحاب ، واجمعوا أكبر عدد ممكن من رفاقنا ، وعودوا

قبيل انبلاج الفجر ، وليذهب اثنان منكم فى الطّريق الجنوبية لمراقبة أناس تنكّروا بزيّنا ، وأسروا جماعة يسوقونها إلى "جبهة الثّور" فشرفنا فى خطر » .

فتفرّق الرّجال السبعة كلٌّ إلى وجهة ، وقال الغريب يخاطب « جرث » و « ومبا » :

— « إن على مقربة من هذا المكان كوخ راهب يدعى الأخ "تك" وهو رجل منّا يجيد الضّرب بالعصا إجادتى رمى السّهام ، فتعاليا معى إليه فسوف يكون لنا عوناً ثميناً فى مهمّتنا » .

ومشى الثلاثة حتى بلغوا كوخ الرّاهب ، فطرق الغريب الباب طرقاً معيّناً ، فسارع الراهب إلى فتح الباب ، فدخل الوافدون ووجدوا فى كوخ الرّاهب فارساً حدقوا فيه فإذا هو الفارس الذى لقّبه الجمهور « الأسود الخامل » فسرّ زعيم الخارجين على القانون بذلك اللقاء لما كان قد شهده فى المباراة من براعة الرجل وقوّته وشجاعته وقال للرّاهب :

— « اخلع مسوحك يا عزيزى "تك" وارتد ثوب الغابة فلدينا مهمّة جليلة ! »

وبأسرع من تردد الطرف انقلب ذلك الراهب إلى رجل من رجال الغابات فى زيّه وملبسه ، ومشى إلى زاوية الغرفة ، وأخذ منها هراوة غليظة شرع يقلّبها فى يديه ثم قال :

— « إلى العمل ! »

فالتفت الزعيم إلى « الأسود الخامل » وقال :

— « شهدتك يا سيّدى فى المباراة فعرفت فيك الفارس الشجاع والبطل الصنديد ، ولا بد لمن كان فى بطولتك وشجاعتك أن يكون صاحب قلب كبير ونفس سامية ! » فقال « الأسود الخامل » :

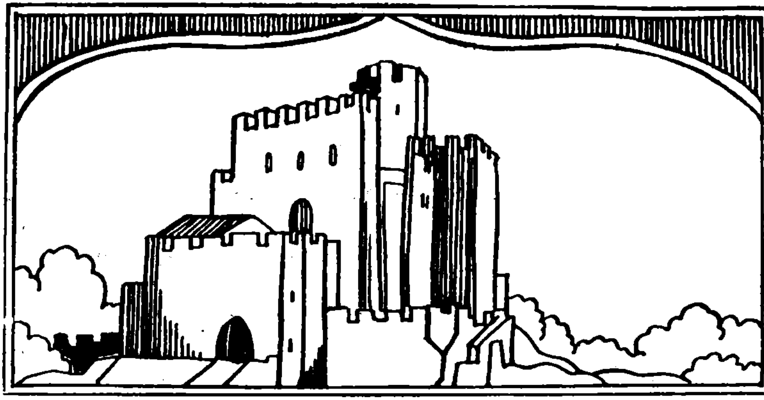
— « وماذا وراء هذا المديح ؟ » فقال الزّعيم :

— « واجب يدعوك إليه الشّرف والنّبل ونصرة الضعيف ، فقد أسر رجال "جبهة الثّور" النبّيل "سدريك" وقريبته "روناء" ونفراً من رجاله وهم يسيرون بهم إلى قلعة ذلك الطاغية فلا بد من إنقاذهم ! » فقال « الأسود الخامل » :

— « إن النّذْر الذى قطعته للفروسيّة يدعونى أن أهبّ إلى نُصرة الملهوف ، ولكن أنت ما شأنك ومن تكون ؟ » فقال الزعيم .

— « رجل بلا اسم ولكنه يحبّ بلاده ، فاكتف الآن بهذا الجواب واعلم أنى رجل لا يخيس بعهد ولا يحنث بيمين ، سواء ارتديت هذا الزِّىّ أم حلّيت حذائى بمهماز من الذّهب! » فقال « الأسود الخامل » :

— « إنى لأعرف أن أقرأ خبايا النفوس من سيماء الوجوه ، وسيماؤك تدلّ على الشجاعة والصّراحة فاعتمد علىّ فيما أردت ! »



١١

كانت قلعة « جبهة الثّور » إحدى القلاع الحصينة التى يستقلّ بها أمراء الإقطاع فى ذلك العهد ، وكانت تتألفّ من عدّة مبانٍ شمخت فى جوانبها أبراج كبيرة ، ويحفّ بها جميعاً سور ناهض فوق خندق يستمدّ مياهه من ترعة مجاورة .

اقتربت قافلة المخطوفين والخاطفين من القلعة ، فعلم « سدريك » أىّ مصير ينتظره وينتظر رفقاءه فى أقبية تلك القلعة المظلمة ، فقال للرجال الذين كانوا يحرسونه :

— « لو عددتكم من عصابات الغابات واللصوص لأهنت هؤلاء

الناس ، فقولوا لى أيها الأوغاد ، أبحياتى يطمع سيّدكم أم بأموالى ؟ أكثير أن يمتلك سكسونىّ قطعاً من أرض آبائه وأجداده ؟ أنا لست أحفل بالحياة إن كان فى هلاكى مَنْجاة الوطن ، فليأمر طاغيتكم بقتلى ولكن ليطلق سراح الآنسة " روناء " سليلة الدّم السّكسونىّ الحرّ الشّريف ، المنحدر إليها من أرومة الأمراء والملوك » .

فلم يجبه أحد عن خطابه الطويل ، وكانت القافلة قد وصلت إلى باب القلعة فنفخ أحدهم بالبوق ، فأنزل الجسر المرفوع فاجتازته القافلة إلى صحن القلعة ، وتراكض حولها الحرس الشّاكّ السّلاح .

سيق « سدريك » إلى قاعة فسيحة ، وسيقت « روناء » إلى قاعة فى جناح آخر من القلعة ، أمّا « رفقة » وأبوها « إسحق » والجريح فقد أودع كل منهم غرفة تبتعد عن الأخرى ، وزُجّ بقيّة الرّجال فى قَبْوٍ من أقبية القلعة .

وبينا كان « سدريك » مستسلماً إلى هواجسه ، فُتح باب الغرفة ودخل منه فارس مقنّع ووراءه أربعة من الخدم يحملون مائدة حافلة بألوان الطعام فنهره « سدريك » قائلاً :

— « ما معنى هذه المهزلة ؟ أيظن سيّدك أننا نجهل أين نزلنا وباسم من اعتُقلنا ؟ قل لسيّدك "جبهة الثّور" إن جشعه قد جعله ينافس اللصوص وقطّاع الطريق فليحدّد قيمة الفدية ! »

فلم يحِرِ الفارس جواباً بل انحنى مسلّماً وانصرف .

وجىء كذلك لبقية الأسرى بالطعام ، فأكلوا إلا « روناء » و « رفقة » وإلا الفارس الجريح الذى بدأ يفيق من غيبوبته . وفى هذه الأثناء سمعوا جميعاً صوت بوق بعيد المصدر ولكنهم ما استطاعوا أن يعرفوا مَنْ ذلك النافخ بالبوق ، غير أنهم أحسّوا أن بالقلعة حركة غير عاديّة .

وما كاد العجوز « إسحق » يعود إلى مكانه حتى فُتح باب غرفته ودخل منه « جبهة الثّور » يتبعه ثلاثة من العبيد السُّود، فاقترب من « إسحق» وأشار إلى أحد العبيد فأخرج من سلّة متدلّية تحت ذراعه ميزاناً وعِدّة وزنات وضعها عند قدمى سيّده فقال هذا لليهوديّ « إسحق » :

ـ « أترى هذا الميزان وهذه الوزنات ؟ هيّا زِنْ لى بها ألف رطل من الفضة ! » فقال « إسحق » :

ـ « يا إله إبرهيم ! من سمع بألف رطل من الفضّة ولو بالخيال والأساطير ؟ ! » فقال « جبهة الثّور » :

ـ « إذا لم يكن لديك فضّة فإنى أقبل بما يوازى هذه الكميّة ذهباً ». فقال « إسحق » :

ـ « حنانك أيها الأمير ! إنى رجل شيخ فقير ضعيف غير أهل أن أكون موضع سخطك وغضبك ! » فقال « جبهة الثّور » :

ـ « كلّنا نعرف أنك غنىّ واسع الثّراء » . فقال « إسحق » :

ـ « أقسم بالله . . . » فقاطعه « جبهة الثّور » قائلاً :

ـ « لا تقسم فما أنت إلا أفّاق كاذب . . . إن آلافاً من الأسرى كانوا فى مكانك هذا وعصوا رغباتى فأذقتهم الموت الزؤام ، ولكن ميتتهم لا تقاس بشىء إلى الميتة التى تنتظرك » .

وبإشارة من « جبهة الثّور » أخرج العبيد من سلالهم حطباً وزجاجة زيت ومنفاخاً وأسياخاً من الحديد ، فلم تمض دقائق قليلة حتى اضطرمت النار فى الموقد فقال « جبهة الثّور » :

ـ « انظر يا "إسحق" إلى هذه الأسياخ تحميها النار ، إنها السّرير الذى ستفترشه عرياناً كالدودة ، أفتختار الحديد والنار أم تدفع الفدية المطلوبة ؟ »

وكان العبيد قد اقتربوا منه بأمر سيّدهم ليخلعوا عنه ملابسه ، فاستولى عليه ذعر شديد ، وأخذ يولول ويصيح قائلا :

ـ « سأدفع . . . سأدفع . . . »

ثم استأنف كلامه :

ـ « بمساعدة إخوانى وبالتسوّل على أبواب المعابد . . . إلى أين تريد يا سيّدى أن أجيئك بالمال ؟ » فقال « جبهة الثور » :

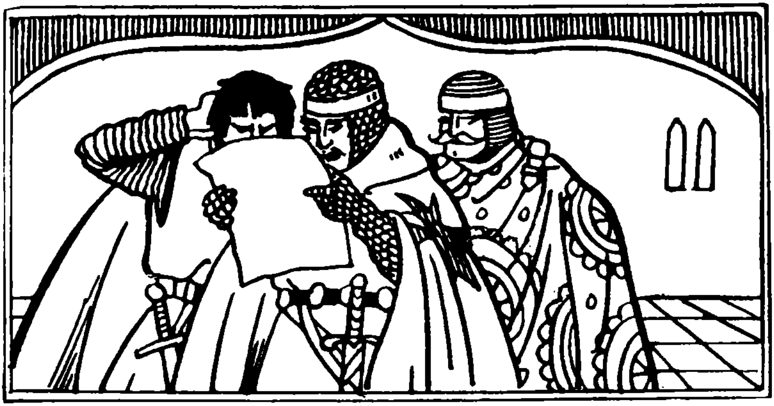
ـ « إلى هنا ! . . . أتحسبنى أطلق سراحك قبل أن أقبض المبلغ ؟ » فقال « إسحق » :

— « ومَنْ يضمن لى حريتى بعد دفع المال ؟ » فقال « جبهة الثوّر » :
— « كلمة شرف من بارون نورمانىّ » .
فتنهد « إسحق » وقال :
— « لعل هذه الفدية الضخمة تفتدى أيضاً رفقائى فيسهموا معى فى دفعها » فقال « جبهة الثّور » :
— « اهتمّ بشؤونك ولا تَعْنِك شؤون غيرك ! » فقال « إسحق » :
— « إذن أطلق سراح ابنتى لأرسلها فى طلب المال » . فصاح « جبهة الثّور » :
« أهى ابنتك ؟ لقد اهديتها إلى الفارس "بوا جلبرت" لتكون خادمة عنده » .
فطار صواب العجوز « إسحق » عند سماعه هذا الكلام وأخذ ينتحب ويصيح :
— « ابنتى . . . ابنتى . . . ردّوا علىّ ابنتى وخذوا كل ما أملك ! » فقال « جبهة الثّور » :
— « لقد سبق السيف العذل فقد وعدت رفيقى فى السلاح الفارس "بوا جلبرت" بأن تكون خادمته ولا بد من الوفاء بالوعد » . فتملك الغضب اليهودىّ العجوز وصاح مزمجراً :
— « أحرقونى . . . عذبونى . . . اقتلونى فما كنت لأكترث لحديدكم

ونار كم . . . ولن تنالوا درهماً واحداً منى إذا لم تطلقوا سراح ابنتى » .

وسمع فى هذه اللحظة صوت البوق للمرة الثانية أعقبته جلبة ووقع أقدام فى جميع أروقة القلعة ، وأصوات تنادى « جبهة الثّور » فخرج هذا مسرعاً وأومأ إلى العبيد أن يلحقوه فلحقوه ، وخر العجوز « إسحق » ساجداً لربه على ابتعاد ذلك الكابوس عنه ولو إلى حين . . .





١٢

عُنِي الحرس بالآنسة « روناء » لما كانوا يعرفونه من منزلتها ومنزلة سُلالتها، فأنزلوها فى غرفة جميلة من غرف القلعة فاستسلمت لمصيرها . وبينما كانت تفكّر فى شأنها وشأن « سدريك » ومَنْ معه، سمعت نقراً على باب غرفتها فاعتدلت فى جلستها ، ورأت الباب يفتح ويدخل منه فارس ممشوق القوام بهيّ الطلعة يدعى « دى براسى » كان من أقرب المقرّبين إلى الأمير « حنّا » ، وكان الصديق الحميم للفارسين « بوا جلبرت » و « جبهة الثّور »اشترك معهما فى المباراة ولحقه ما لحقهما من خِزْى الهزيمة وعارها .

وكان هذا الفارس هو الذى تزعم الرجال الذين اعتقلوا « سدريك »

وجماعته تنفيذاً لرغبة صديقه « جبهة الثّور » . وكان منذ زمن طويل يمنّي نفسه بأن يخطب يد الآنسة « روناء » ولكن كان يحجم عن الطلب لأنه كان واثقاً من الرفض ، فرجل مثل « سدريك » وفتاة مثل « روناء » وكلاهما عريق فى سكسونيّته متعصب لها ، لن يرضيا بفارس نورمانى زوجاً ولا صهراً بَلْهَ ما كان يجول فى عروق « روناء » من حبّ شديد لرفيق حداثتها « أيفنهو » .

ووجد « دى براسى » الفرصة مواتية ليبثّ « روناء » حبّه ويخطب يدها فجاء يزورها فى معتقلها ، ولقى منها من الجفاء والاحتقار ما جعله مغضباً مغيظاً يبدل وعده بالوعيد ، ويهدّدها بالانتقام من وليّها « سدريك » ومن ابنه « أيفنهو » فقالت له :

— « إن يديك لن تصلا إلى " أيفنهو". » فقهقه ضاحكاً وقال :

— « ألا تعلمين يا سيدتى النبيلة المتعجرفة أن الجريح الملقى فى مركبة الفتاة اليهودية هو " أيفنهو " نفسه ، وأنه سجيننا اليوم ؟ ! »

فاضطربت « روناء » خشية على « أيفنهو » وساءها أن يكون موضع عناية فتاة غريبة عنه جنساً ودماً ومعتقداً ، وهمّت بأن تتذلّل للفارس « دى براسى » فى سبيل حبيبها « أيفنهو » غير أن صوت البوق الذى يسمع للمرة الثالثة ، واشتداد الجلبة فى القلعة ، اضطرا محدّثها إلى أن يغادر الغرفة على عجل . . .

ولقى فى طريقه صديقه « بوا جلبرت » فحدّثه بما كان بينه وبين « روناء » فأجابه أن اليهودية « رفقة » كانت مثل « روناء » عناداً وأنفة ، وأنها راقت فى عينيه وشعر نحوها بعاطفة قوية فحثّها على اعتناق المسيحية وقبوله زوجاً لها فرفضت وأبت كل الإباء .

واتجه الفارسان إلى القاعة الكبرى فى القلعة ، فوجدا فيها « جبهة الثور » فى انتظارهما على أحرّ من الجمر فبادراه قائلين :

— « ما هذه الأبواق التى تصل إلينا أصواتها من خارج القلعة ؟ »

فمد « جبهة الثور » إليهما رقًّا تلقاه وقال :

— « اقرأ يا "دى براسى" وقل لنا ماذا فى هذا الرّق». فقرأ فيه ما يلى :

« نحن "ومبا" مهرج النبيل "سدريك" و "جرث" راعى خنازيره . . . » فقاطعه « جبهة الثور » وقال :

— « أهذا وقت المزاح ؟ » فقال « دى براسى » :

— « والملائكة إنى أقرأ ما هو مكتوب » . ثم تابع القراءة :

« بقوة الله وعون حلفائنا وأنصارنا ، ولا سيما البطل المغوار الملقب "بالأسود الخامل" وراعى الرماة زعيم رجال الغابات ، ننهى إلى علمك يا "ريجنلد جبهة الثور" وإلى علم شركائك فى الإثم أيًّا كانوا ، أنه من حيث أنكم بلا سبب مشروع أسرتم بالقوة سيدنا "سدريك" وسيدتنا "روناء" ومن كان معهما من أناس أحرار وحرس وعبيد ، كما أسرتم

يهودياً يدعى "إسحق يورك" وابنته وجريحاً غريباً، واستوليتم على ما يملك هؤلاء جميعاً من مركبات وخيول وبغال وأمتعة، فى حين أن المذكورين هم من أوفى الأوفياء بجلالة الملك وكانوا مسافرين فى الطريق العام . . .

لذلك

نطلب إخلاء سبيل الأشخاص المذكورين فى أعلاه سُلَمَاء معافَيْن مع جميع ما يمتلكون ، وتسليمهم إلينا أو إلى من ننتدبه وإلا عددناكم خونة ولصوصاً، وأشهرناها عليكم حرباً عواناً ، وحصاراً خانقاً حتى ننتصر عليكم وندمّركم تدميراً وحفظكم الله . . .

حرّر تحت السنديانة العظيمة بقلم خادم الله الرّاهب الأخ "تك" ووقّعنا عليه » .

ولما انتهى « دى براسى » من القراءة أغرق هو وصديقه « بوا جلبرت » فى الضَّحِك فعنّفهما « جبهة الثّور» وقال :

— « كفَّاً عن الضحك فأولى لنا أن نعرف ماذا نحن فاعلون ؟ فلو لم يكن هذان المجنونان معتمدين على الأنصار والأعوان لما تكلما بهذه اللهجة الوقحة » .

ودخل إلى القاعة فى هذه اللحظة أحد الحرس فسأله « جبهة الثّور» :

— « كم عددهم ؟ » فقال الحارس :

ـ « مئتان على الأقل . . . وهم متجمعون فى الغابة التى تواجه باب القلعة » .

فقال « دى براسى » وقد رأى « جبهة الثوّر » مفكـّراً مهموماً :

ـ « إنها مهزلة ليس إلا . . . لنجمعْ رجالنا ولنخرجْ إليهم ، فرجل واحد منّا شاكّ السّلاح كفيل بعشرين من هؤلاء الأوباش » . فقال « جبهة الثور » :

ـ « وأين الرّجال ؟ ليس عندى منهم غير عشرين ، والباقون هم مع فرقتك فى " يورك " » . فقال « بوا جلبرت » :

ـ « يكفى هذا العدد ! ماذا ؟ أترهبنا عصابة من قطّاع الطرق ؟ »

فتحمـّس « جبهة الثوّر » هائجاً وقال للفارس « دى براسى » :

ـ « أكتب ما أمليه عليك » .

فاستعدّ « دى براسى » للكتابة وأملى عليه « جبهة الثّور » ما يأتى :

« " ريجنلد جبهة الثّور " والنّبلاء الفرسان حلفاؤه لا يقبلون التّحدّى يأتيهم من عصابات العبيد ورجال الغابات ، فإذا كان للرجل المتنكر باسم " الأسود الخامل " حقّ التكريم الواجب للفرسان فإنه يرمى بنفسه فى دركات الهوان بانضمامه إلى مثل هؤلاء النّاس ، أما الأشخاص الذين أسرناهم فإننا نطلب منكم من باب الرأفة بهم أن ترسلوا إليهم راهباً يسوّى الحساب بينهم وبين ربهم لأننا عزمنا على قتلهم فى هذا النهار ، وعند ما ترون رؤوسهم

معلّقة على أسوار القلعة تعلمون أننا لم نحفل بمن نصبوا أنفسهم مدافعين عنهم » .

وسلّمت الرسالة إلى الرجل الذى جاء بالإنذار ، فسارع بها إلى السنديانة الضخمة حيث كان رجال القيادة ينتظرونه وهم : « ومبا » و « جرث » و « الأسود الخامل » وزعيم رجال الغابات والأخ « تك » وكان حولهم أكثر من مائتى رجل بينهم جميع رجال « سدريك » وفلاّحيه وفلاحى القرى المجاورة ، وجلّ سلاحهم الفؤوس والمناجل وأوتاد المركبات ، لأن النورمان الفاتحين كانوا يحرمون على السكسون حمل السلاح أو اقتناءه إلا لنفرٍ قليل من النّبلاء .

وقف الزعماء على مضمون الرسالة ، فأخذوا يتشاورون فيما بينهم عن الطريقة المثلى التى يتّبعونها فى إنقاذ الأسرى ، وكانوا كلهم على جانب كبير من الهياج والحماسة لمّا أدركوا الخطر المحدق بالنّبيل « سدريك » وجماعته فقال « الأسود الخامل » :

— « صواب الرأى أن يندسّ منّا واحد بين العدوّ ليقف على عدد رجاله ومدى قوّته ، ولست أرى إلا الأخ "تك" من يستطيع القيام بهذه المهمّة ما داموا يطلبون راهباً يرعى الشؤون الروحية لهؤلاء المساكين » .

فتردّد الأخ « تك » قليلاً فهبّ « ومبا » يقول :

— « لن يقوم بهذه المهمة الخطيرة غير مجنون ، وأنا ذلك

المجنون ، فما يحجم عنه العقلاء يفعله المجانين » .

وطار « ومبا » إلى كوخ الأخ « تك » وعاد بعد قليل مرتدياً مسوح الراهب ، فودّع رفقاءه ومشى إلى القلعة ، فلمّا ابتعد قال زعيم الرّماة :

– « هيّا نحاصر القلعة حتى لا يخرج منها أحد فى طلب النجدة ! »





١٣

تلاشت شجاعة « ومبا » عند ما قابل « جبهة الثّور» وجهاً لوجه ، غير أن « جبهة الثّور» كان متعوّداً أن يضطرب الناس فى حضرته ويهلعوا فلم يثر اضطراب « ومبا » شكوكه فقال له :

ــ « من أنت أيها الراهب ومن أين قادم ؟ » فقال « ومبا » :

ــ « إنى راهب من رهبان القديس "يوحنّا" كنت أجتاز هذه الغابة فوقعت فى أيدى رجال الغابات فأمرونى أن آتى إلى هنا لأقوم بالمساعدة الروحية اللازمة لأناس حكمت عليهم عدالتكم بالقصاص العادل » فقال « جبهة الثّور » :

ـ « وما عدد هؤلاء اللصوص ؟ » فقال « ومبا » :
ـ « عددهم كبير جداً قد يكون أكثر من خمسمائة رجل » .
ودخل فى هذه اللحظة « بوا جلبرت » فسمع الرّقم فصاح :
ـ « إنها لفرصة ثمينة لكى نبيد هؤلاء الرّعاع عن آخرهم ! »
ثم انتحى ناحية « بجبهة الثّور » وقال له :
ـ « أتعرف هذا الرّاهب ؟ » فقال « جبهة الثّور » :
ـ « هذه أول مرة أراه فيها » . فقال « بوا جلبرت » :
ـ « أرسله إذن إلى "سدريك" فقط فإذا انتهى من إعداده للموت حملناه رسالة إلى فرقة "دى براسى" القريبة من هنا فتخفّ إلى مساعدتنا » .
وأمر « جبهة الثّور » أن يدلّوا الراهب على غرفة "سدريك" ويتركوه معه ، فدخل « ومبا » على « سدريك » فرآه يذرع الغرفة جيئة وذهوباً وقد بلغ منه الغضب كلّ مبلغ ، فحياه مغيّراً لهجته وصوته حتى إذا اطمأنّ إلى ابتعاد الحراس قال بصوته الطبيعى :
ـ « سيّدى "سدريك" ! »
فدهش « سدريك » عند سماعه الصوت وحملق فيه وكان « ومبا » قد أمال قبعته إلى الوراء وكشف عن وجهه فصاح « سدريك » :
ـ « "ومبا" ! » فقال « ومبا » :
ـ « هو بعينه . . . ولكن ناشدتك الله يا سيّدى لا تضيّع الوقت

سدّى ، فأنت فى خطر . . . فقم بادلنى ثوباً بثوب ، واخرج من هذه القلعة آمناً مطمئناً » . فقال « سدريك » :

ـ « ولكنهم سيشنقونك إذا كشفوا أمرك ، ولن أرضى أن أشترى حياتى بحياة . . . » فقاطعه « ومبا » قائلا :

ـ « بحياة عبدٍ من عبيدك . . . إن وجودك بين رجالنا سينفخ فيهم روح الحماسة والإقدام . . . إن خمسمائة رجل ينتظرون الأمر بالهجوم على هذه القلعة . . . »

وظلّ « ومبا » يلحف فى التّوسّل والرّجاء حتى قبل « سدريك » ، الاقتراح فتبادل هو و « ومبا » الثّياب وخرج من الغرفة وهو يقول :

ـ « سأعود حالاً على رأس هؤلاء الرجال لأنقذك وأنقذ "روناء" وجميع من كان معنا . أو لأموت معك . أستودعك الله أيها المجنون ! »

سار « سدريك » بضع خطوات فى الرواق ، فقابله « جبهة الثّور » فقال له :

ـ « لعلك قمت بمهمتك يا سيدى الراهب خير قيام ! »

فهزّ « سدريك » رأسه فاستأنف « جبهة الثّور » كلامه وقال :

ـ « إن رجالى كلهم فى غرفة المائدة ، وسأوصلك أنا إلى باب القلعة . . . خذ هذه القطعة الذّهبية منحة منى إليك ، وخذ معها هذه الرّسالة وأوصلها إلى قلعة "دى براسى" القريبة منا ، وحاول أن لا تعرّج على

رجال الغابات ، فإن رآك أحدهم فحذارِ أن يعرف عن أمر هذه الرسالة شيئاً ، على أنه إن حدّثتك نفسك بخيانتى فلن تفلت من يدى واسوف أدقّ عنقك دقّاً » .

وكانا قد وصلا إلى باب القلعة فأمر « جبهة الثّور» الحارس بفتحه وإنزال الجسر فمرّ عليه « سدريك » ثم رفع ثانية كما كان . وتولّت « جبهة الثّور» الدّهشة عند ما رأى الرّاهب يركض متجهاً إلى الغابة ، ويطرح فى الترعة القطعة الذّهبيّة التى أعطاه إياها ، فأمر الحارس بأن يرميه بسهم ولكنه كان أبعد من أن تدركه السّهام .

ورجع « جبهة الثّور» إلى داخل القلعة ، وتوجه توّاً إلى غرفة « سدريك » ففتح الباب بعنف وشدّة وهو يصيح :

— « بكم تفتدى نفسك أيها السّكسونىّ القذر » فقال « ومبا » :

— « لا أفتديها بدرهم واحد ! يقولون لى إن دماغى مقلوب ، فلو علّقتنى على المشنقة بقدمىّ لاعتدل دماغى واستطعت أن أحدّثك حديث العقلاء » .

فاستغرب « جبهة الثّور» من هذا الكلام الذى لا يدل على مسحة من العقل ، وكان قلّما رأى « سدريك » عن قرب إلا فى وليمة الأمير ، فاقترب منه وأطاح قبّعته بظهر كفّه فمال رأس « ومبا » إلى الوراء فبدا فى عنقه طوق النّحاس فصاح « جبهة الثّور » :

ـ « أيها الحرّاس ! بمن جئتمونى ؟ من هذا الرجل ؟ »
وكان « دى براسى » قد دخل الغرفة فى تلك الثانية فقال :
ـ « إنه ياعزيزى مجنون "سدريك" ومهرّجه ! » فقال « جبهة الثّور »
ـ « سأشنقهما معاً ! ولكن أين "سدريك" ؟ » فقال : « دى براسى » :
ـ « يخيّل إلىّ يا عزيزى أنه الرّاهب الذى خدعنا ! » فقال « جبهة الثّور » :
ـ « والذى صحبته إلى الباب وأخرجته أنا نفسى من القلعة ! »
وبينما كان الفارسان الصّديقان يتجاذبان مثل هذه الأحاديث جاءهما أحد الحرّاس يخبرهما أن بالباب راهباً يستأذن فى الدخول، فصاح « جبهة الثّور » :
ـ « هذا يوم الرّهبان! أترى هذا القادم الجديد راهباً مزيّفاً أيضاً ؟ فتّشوه قبل أن يدخل، ولئن خدعكم هو كذلك لأفقأنّ أعينكم ! » فقال الحارس :
ـ « إنى أعرفه حق المعرفة يا سيّدى، إنه آت من قِبَل صديقكم الرّاهب " أيمر " » . فقال « جبهة الثّور » :
ـ « أدخلوه » .
ولما مثل الرّاهب بين يدى «جبهة الثّور» أخبره أن رئيسه الرّاهب

« أيمر » سطا عليه رجال الغابات فسلبوه كل ما فى جيبه من نقود وما معه من حقائب وطلبوا لإطلاق سراحه مبلغاً ضخماً من المال ، وأنه أرسله راجياً من صديقه « جبهة الثور » أن يفتديه أو أن ينقذه بقوّة السّلاح ، فصاح « جبهة الثّور » مغيظاً محنقاً :

ــ « ليذهب رئيسك إلى الأبالسة ، إنه أغنى منا جميعاً فما ضرّه لو افتدى نفسه ، ثم كيف السّبيل إلى إنقاذه بقوّة السّلاح وخاطفوه يفوقوننا عدداً إلى ما لا يقاس ؟ » فقال الرّاهب :

ــ « صدقت يا سيّدى فقد رأيتهم يجمعون جموعهم ويستعدّون للهجوم » .

وما إن لفظ الراهب كلمته الأخيرة حتى دخل « بوا جلبرت » القاعة وهو يصيح.

ــ « العدو يتحرّك ! كفانا مضيعة للوقت . . . هيّا نُعدّ العُدّة لاستقباله »

وخرج الثلاثة إلى سطح القلعة يستكشفون مواقع المهاجمين ، وعنى « بوا جلبرت » ، وكان أكثر الثلاثة ذكاءً وخبرة ، بتقصى شأن العدوّ فأدهشه ما رآهم عليه من تنظيم وتنسيق فقال لزميليه :

ــ « لم أكن أتوقّع أن أرى أن هؤلاء الرّجال على مثل هذا التّنظيم الحربى ، انظروا كيف يتدارون فى مسيرهم وراء الأشجار لتكون لهم



دروءاً تقيهم السّهام ، لا بدّ أن يكون على رأسهم فارس من الفرسان » .
فقال « دى براسى » :

ــ « انظرا هناك . . . انظرا تلك الخوذة وتلك الدّرع العريضة ولابسها العملاق الذى ينظّم صفوف رماة السّهام من رجال الغابات إنه " الأسود الخامل " فصرخ « جبهة الثّور » :

ــ « مرحباً به ، إن بيننا وبينه لحساباً . . . »

وأسرع الفرسان الثلاثة فى النّزول من السّطح وأمر « جبهة الثّور » بضرب النّفير فهرع كل جندىّ وحارس إلى مكانه من القلعة يستعدّ لصدّ هجمات المغيرين ، وتولّى كلّ واحد من هؤلاء الثلاثة زمام الأمر يدير دفّة المعركة من جانب من جوانب القلعة .





١٤

لمّا سقط « أيفنهو » بعد المباراة مغمىّ عليه ونقل إلى خيمته، رجت « رفقة » من أبيها « إسحق » أن ينقل الفارس الجريح إلى المنزل الذى يسكنانه فى ضواحى « أشبى » ليستريح قليلا فتتمكّن من تضميد جراحه .

وكان اليهود فى ذلك العصر ، رجالهم ونساؤهم ، يمارسون مهنة الطبّ والتّطبيب ، وكانت « رفقة » بارعة فى هذا الفنّ .

وبقى « أيفنهو » فى غيبوبته ساعات طويلة أفاق منها قليلا فرأى نفسه فى منزل جميل مفروش على الطّراز الشرقىّ ، فدهش وازدادت دهشته عند ما رأى إلى جانب سريره فتاة جميلة شرقية الزىّ قد عنيت بتضميد جراحه فخاطبها بالعربية قائلا :

ـ « هل لك أيتها الحسناء أن تخبريني . . . » فقاطعته وقالت :

ـ « إني أتكلم الإنجليزية يا سيّدى فقد ولدت بإنجلترا » فقال :

ـ « هل لك إذن أيّتها السيدة النبيلة . . . » فقاطعته ثانية وقالت :

ـ « لست نبيلة يا سيدى ، فأعلم أن التى تداويك ليست إلا فتاة يهودية هى ابنة " إسحق يورك " » .

فغمغم « أيفنهو » مأخوذاً بحنان « رفقة » ورعايتها ، وأخبرته أن والدها مضطرّ إلى السفر حالا إلى « يورك » ولكن سيصحبانه معهما ويسهران على تطبيبه حتى يتماثل للشّفاء ، فشكرها « أيفنهو » وسألها عما جرى بعدالمباراة ، وعن أخبار أبيه والآنسة « روناء » وتابِعه « جرث » ، فأثّر فيه الجهد الذى عاناه فى الحديث ، فعاد إلى غيبوبته .

ثم كان ما كان من أمر رحيل « رفقة » وأبيها و« أيفنهو » ، ومن هرب حرّاسهم بالخيل والأمتعة ، وتلاقيهم مع « سدريك » ورجاله ، ووقوعهم جميعاً فى قبضة « دى براسى » ورجاله ، وكان هذا قد عرف « أيفنهو » فلم يخبر بذلك « جبهة الثور » بل أمر عند وصولهم إلى القلعة بنقل الجريح إلى غرفة خاصة ، وأوصى به خادمة عجوزاً سكسونية الأصل كانت ملتحقة بخدمة « جبهة الثّور » فرأت العجوز الشّمطاء ، إيثاراً للراحة والعافية ، أن تطلب من « رفقة » ، وكانت غرفتها فى ذلك الجناح ، أن تحلّ محلها فى السّهر على الجريح .

وعند ما غادر « بوا جلبرت» حجرتها وأظهرت له ما أظهرت من تمرّد وعناد ، ورفضها أن تكون زوجته هرعت إلى « أيفنهو » وكان قد صحا من غيبوبته فخاطبها قائلا :

– « أهذه أنت يا عزيزتى "رفقة" ؟ »

فكادت عيناها تدمعان عند سَماعها مناداته إياها بكلمة عزيزتى ، فأقبلت عليه تطيّب خاطره وتقصّ عليه ما أحاط بهم من أحداث ، وأنهم جميعاً الآن أسرى « جبهة الثّور » فقال :

– « وكيف السّبيل إلى إغاثة أبى و "روناء" ؟ » فقالت :

– « هوّن عليك فإن عدداً كبيراً من رجال الغابات يستعدّون للهجوم على القلعة » .

وبلغت مسامعَهما إذ ذاك جلبةُ الجند وقعقعة السّلاح ، فتململ « أيفنهو » وشقّ عليه أن لا يستطيع الاشتراك فى القتال فقال :

– « حبّذا لو استطعت أن أجرّ نفسى إلى هذه النّافذة لأشهد سير القتال ولو عن بعد ! » فقالت :

– « إن جراحك لا تسمح لك بالحركة ، ولكنّنى سأقف أنا عند النّافذة وسأروى لك كلّ ما يحدث » .

وقفزت إلى النّافذه ، وأدارت طرفها يميناً وشمالا وقالت :

– « جماعات غفيرة من حملة الأقواس تتجمع عند مدخل الغابة . . .

أرى فارساً متشحاً بالسّواد يصدر إليهم الأوامر . . . انتقل إلى جانب آخر من الغابة . . . إنه ينظم صفوف المهاجمين . . . »

وسكتت قليلا فقال « أيفنهو » :

— « وماذا بعد ذاك ؟ » فقالت :

— « لست أرى إلا وابلاً من السّهام يخطف الأبصار ! » فقال :

— « أيرمون السّهام على صخور وحجارة ؟ فماذا يأملون ؟ والفارس الأسود ؟ » فقالت :

— « غاب عن نظرى فلست أراه . . . لا . لا . ها هوذا . . إنه على رأس حفنة من الرّجال مسلّحين بالفؤوس يُعملونها فى جانب من سور القلعة . . . إنهم افتتحوا ثغرة فيه . . . « جبهة الثّور » فى مقدمة المدافعين . . . المهاجمون يتراجعون . . . عادوا إلى الهجوم . . . التحموا بالحراس . . . آه يا إلهى . . . »

وأدارت رأسها فقال لها « أيفنهو » :

— « "رفقة" ! " رفقة " ! انظرى . . . أخبرينى . . . » فأجالت نظرها ثانية وصاحت :

— « يا إله يعقوب ! ماذا أرى؟ أرى الفارس الأسود و"جبهة الثّور" ، مشتبكين . . . آه لقد سقط ! » فقال « أيفنهو » :

— « من ذا الذى سقط يا " رفقة " ؟ من ؟ »

– « الفارس الأسود » ثم أردفت كلمتها بصيحة فرح قائلة :

– « لقد نهض . . . إنه يضرب بقوّة عشرين رجلا . . . يا إلهى ... انكسر سيفه آه . . . خطف فأس رجل بجانبه . . . إنه يضيّق الخناق على "جبهة الثّور" سقط "جبهة الثور" . . . هرع رجاله إلى نجدته ... نقلوه إلى داخل القلعة . . . الفارس الأسود يتوقّف . . . جماعة من رجال الغابات يصعد بعضهم فوق أكتاف بعضهم الآخر ويقفزون من الأسوار ... الفارس الأسود يعود إلى استئناف الهجوم والفأس فى يده ... الحجارة تنهال عليه كالمطر من فوق الأبراج ... لا يبالى بها كأنها قطع من القطن . . . »

فنهض « أيفنهو » قليلا وقال :

– « "رفقة" ! ليس فى إنجلترا كلها إلا رجل واحد يحارب على هذه الشّاكلة ، ليتنى كنت إلى جانبه ! » فقالت :

– « هدّئ روعك يا سيّدى فهذا الظمأ إلى القتال والمجد يؤخّر شفاءك » . فقال :

– « آه ! إنك لا تستطعين أن تدركى ما يجول فى صدرى يا "رفقة" ! أصعب شىء على الفارس الهائم بالفروسيّة أن يجد نفسه موثقاً إلى سرير ، والكرّ والفرّ فى متناول يده ! إن حب المعارك هو حياتنا ، ونقْع الحروب هو الهواء الذى نستنشقه . . . إننا نضحّى بكل عزيز علينا فى سبيل الفروسية » فقالت :

– « يا له من مجد زائف! . . . ماذا يبقى لكم من دمائكم المسفوكة على شفرات السّيوف وظُبَى الرّماح ؟ » فقال :

– « يبقى لنا المجد يا "رفقة"! المجد الذى يكلّل قبورنا بأكاليل الذهب » .

وكأنما تعب « أيفنهو » من الجهد الذى بذله فى الكلام فاستلقى إلى السّرير رهينة غيبوبة جديدة .





١٥

استراح المهاجمون والمدافعون بعد المرحلة الأولى من المعركة ينظّم كلٌّ صفوفه ويزيد استعداده ، وتقابل « دى براسى » و « بوا جلبرت » فى القاعة الكبرى من القلعة وأخذا يستعرضان حوادث القتال ثم ذهبا إلى حيث كان زميلهما « جبهة الثّور » يعالج سكرات الموت ، فسمعاه يهذى ويتمتم بكلمات غير مفهومة فقال « بوا جلبرت » :

— « لقد كانت إصابته قاتلة ! » فقال دى براسى » :

— « لو نزلت الضربة التى ضربه إياها ذلك الفارس الأسود على رؤوس عشرين ثوراً مجتمعة لصرعتها كلّها . . . إن فقد زميلنا خسارة

محققة، وما أرانا نقوى على مواجهة الهاجمين، فحبذا لو فاوضناهم وأعدنا إليهم الأسرى! » فقال « بوا جلبرت » :

– « لأن أدفن تحت أنقاض الحجارة مهشّم الرأس مقطّع الأوصال أحبّ إليّ من الاستسلام! »

وعاد كلٌّ إلى موقفه من ساحة القتال، وكان المهاجمون قد بدأوا يتحرّكون بعد تلك الهدنة القصيرة، وهجم النّفر الذى فتح الثغرة منهم على باب القلعة الداخلى يتقدّمهم الفارس الأسود و « سدريك » فانهالا على الباب يحطمانه بفأسيهما، فى حين حمى ظهريهما رجال الغابات بالسّهام التى كانوا يرشقونها ويشلّون بها حركة المدافعين، غير أن هؤلاء وعلى رأسهم « دى براسى » يشدّد عزائمهم ويصرخ فيهم صرخاته المدوّية ما فتئوا يرمون المهاجمين بالحجارة ولكن على غير جدوى .

وفجأة رأى « دى براسى » الدخان يتصاعد من البرج الشّرقىّ من القلعة فأيقن أن البرج يحترق، وهاله فى اللحظة نفسها أن يرى الباب الذى يحميه قد تحطم ونفذت منه جماعة قد اشتبكت ورجاله ، فنزل مسرعاً واشتبك هو والفارس الأسود فى صراع عنيف ، وما هى إلا دورة وأختها حتى عاجله الفارس الأسود بضربة من فأسه أطارت من يده السّيف وطرحته أرضاً، فحاول النهوض ولكن الفارس الأسود كان فوق رأسه يهمّ بأن يكيل له الضربة الأخيرة التى تجعله فى عداد الأموات، فسمع الفارس الأسود يقول له :

– « إن حياتك رهينة فى يدى يا "دى براسى" فسلّم نفسك أو فودّع الحياة ! » فقال « دى براسى » :

– « اضرب ضربتك فما كنت لأستسلم لرجل مجهول » .

فانحنى الفارس الأسود عليه ، وأسرّ فى أذنه بعض كلمات ، فبدا عليه الدّهش والاضطراب وقال :

– « سلّمت نفسى » فقال الفارس الأسود :

– « اذهب إلى جسر القلعة وانتظر هناك أوامرى » . فقال « دى براسى » :

– « علىّ أن أقول لك أولا ما يهمّك الوقوف عليه يا سيّدى : إن « أيفنهو » جريح وأسير فى هذه القلعة ، وهو فى غرفة من غرف ذلك البرج الذى يحترق ، فإن لم ينقذ فى الحال هلك طعمة للنّار » .

وكانت النّار قد أخذت تلعب بالبرج وكان الدّخان قد وصل إلى الغرفة التى كانت فيها « رفقة » تداوى « أيفنهو » فصاحت فجأة :

– « النّار ! النّار ! » فقال « أيفنهو » :

– « اهربى من النار يا "رفقة" واتركينى لشأنى ، ولتكن إرادة الله ! » فقالت « رفقة » :

« سننجو معاً أو نموت معاً . . . ولكن أبى ! واحسرتاه على أبى ! »

ودخل الغرفة عندئذ « بوا جلبرت » وكانت هيئته مرعبة ، فدرعه

محطّمة يسيل الدّم على جوانبها ، فصاح عند ما رأى « رفقة » :
— « لقد وجدتك أخيراً . . . إنى تحدّيت ألف خطر وخطر لأصل إليك . . . وإنى ما زلت عند وعدى . . . هيّا اتبعينى وشاطرينى الحياة حلوها ومرّها . . . » فقالت :
— « لا أتبعك قبل أن تنقذ والدى وتنقذ هذا الجريح ! » فقال :
— « لتحمل الأبالسة كل من عداكِ . . . تعالى . . . »
ولما رآها ممتنعة حملها بين ذراعيه وخرج بها من الغرفة و « أيفنهو » ينظر إليه آسفاً على أنه لا يستطيع حراكاً فصرخ قائلا :
— « سوف تقدّم لى الحساب عن هذه الإهانة أيها الخاطف فدمك كله لا يغسلها » .
وتملّكت « أيفنهو » الدهشة لما رأى الفارس الأسود داخلا عليه يقول :
— « لولا صراخك يا "أيفنهو" لما استطعت العثور عليك » فقال :
— « إن كنت من الفرسان النبلاء فلا تحفل بى بل تعقّب هذا الوغد الخارج من هنا ، وأنقذ الآنسة "روناء" والنبيل "سدريك" » فقال الفارس الأسود :
— « كلُّ امرئ بوقته رهين ، وهذا وقت إنقاذك أوّلا » .
أمّا « بوا جلبرت » فسارع إلى الإصطبل وركب جواداً وحمل معه الفتاة « رفقة » وخرج من القلعة يسابق الرّياح ، وكان خروجه مباغتة



للمحاصرين فلم يحاولوا أن ينالوه بأذًى خشية أن يصيبوا الفتاة التى يحملها وقد ظنّوها الآنسة « روناء » .

واستسلمت القلعة للمهاجمين فأنقذوا الأسرى وتفرّق رجال الغابات فى أنحاء القلعة يجمعون منها المغانم والأسلاب قبل أن تلتهمها النيران ، وكانت الخادمة السكسونية العجوز هى التى أضرمت النار فى البرج الشرقى انتقاماً لنفسها ولبنى جنسها من صاحب القلعة الفظّ الغليظ . . .





١٦

طلع الفجر يلألئ بنوره الوردىّ الجميل فاستيقظ رجال الغابات وإخوانهم من الفلاّحين بعد ليلة قضوها مستسلمين إلى الرّقاد العميق تجديداً لقواهم وعزائمهم ، فقد أبلوا بلاء حسناً فى الضّرب والقتال ، وعقد النّصر لهم على جنود القلعة وحرّاسها .

وكان الفارس الأسود و « سدريك » قد قبلا دعوة زعيم رجال الغابات ، فقضيا الليل معهم ، وكذلك بقيّة الأسرى وفى طليعتهم اليهودىّ « إسحق » . أما « روناء » فقد التف حولها كوكبة من الرجال الأشداء أوصلوها إلى قصر «سدريك» وبقوا فى حراستها إلى أن يعود صاحب القصر .

وعند الصباح نهض « سدريك » يودّع هؤلاء الرجال ويشكرهم على بطولتهم ونصرتهم للحقّ والنّبل والفضيلة ، ثم التفت إلى الفارس الأسود مودّعاً شاكراً ، ودعاه إلى زيارته فى قصره فإنه ينزل فيه نزول الابن أو الأخ على الرحب والسعة ، فوعده الفارس الأسود بتلك الزيارة فى يوم قريب لأنه مشغول فى هذه الأيّام بمهامّ كثيرة ثم قال له :

— « سأزورك وأطلب منك طلباً » فقال « سدريك » :

— « مجاب منذ الآن » فقال الفارس الأسود :

— « لا تتسرع فقد يعزّ عليك تلبية ما أريد » فقال « سدريك »

— « سأجيبك إليه ولو كان نصف ثروتى وأملاكى » .

وسار « سدريك » بعد ذلك بصَحْبه ورجاله .

وتقدّم زعيم رجال الغابات من الفارس الأسود ورجاه أن يختار ما يشاء من الأسلاب التى غنموها فقال :

— « أختار أن تهبنى دى "براسى" وأن أتصرّف به كيفما أشاء » فقال الزعيم :

— « أمرك مطاع وكيفما كان الأمر فهو أسيرك ! »

فنادى الفارس الأسود « دى براسى » وقال له :

— « أنت حرٌّ مطلق السّراح يا "دى براسى" لقد نسيت أنا الماضى ولكن حَذارِ من المستقبل ! »

فانحنى « دى براسى » وانصرف يتعثّر بأذيال الخجل. وعاد الزّعيم إلى الفارس الأسود وخاطبه قائلا :

« —أيها الفارس النّبيل تفضّل بقبول هذا البوق منى على سبيل الهديّة والتّذكار ، فإذا احتجت يوماً إلى مساعدتنا فى أى غابة من الغابات تكون فيها ، فما عليك إلا أن تنفخ فى هذا البوق ثلاث نفخات هكذا : (وأراه كيف يجب أن ينفخ) فنهرع جميعاً إلى معاونتك »

فتناول الفارس الأسود البوق ونفخ فيه النّفخات الثّلاث التى علّمه إياها الزّعيم فسر جميع الرجال وأثنى الرّاهب « تك » على براعته وذكائه وقال :

— « لكأنك واحد منا منذ زمن طويل ! »

وهتف الحاضرون كلهم :

— « عاش الفارس الأسود ! عاش الفارس الأسود ! »

وما كادوا ينتهون من هتافهم حتّى سمعوا صوتاً صادراً من شجرة قريبة منهم يقول :

— « أما آن الأوان لإطلاق سراحى ؟ ! »

كان صاحب الصّوت الرّاهب « أيمر » الذى أسروه أمس عند ما كان يجتاز الغابة ، وبعثوا بتابعه إلى القلعة ليطلب من « جبهة الثّور » افتداءه ، فلم يكترث لصديقه الراهب الأسير وتركه سجيناً لدى آسريه .

فلما صاح صيحته قال له الزعيم :

ـ « نطلق سراحك عندما تدفع لنا الفدية ... كم طلبتم منه يا رفاق ؟ »

فقال أحدهم :

ـ «لمّا نطلب شيئاً، ولعل من سداد الرّأى أن نحكّم اليهودىّ "إسحق" فى تحديد مبلغ الفدية » .

فتقدّم « إسحق » خطوتين إلى الأمام وقال :

ـ « إن مظاهر الغنى البادية على حضرة الراهب تجعلنى أحدّد المبلغ بستمائة "كورون" ذهباً » فصاح الرّاهب « أيمر » :

ـ « ماذا تقول أيها النّجس؟ ستمائة كورون ؟! »

وبعد أخذ ورد وصراخ ومساومة قبل الرّاهب « أيمر » أن يدفع المبلغ فاستكتبوه به سنداً على نفسه لأمر اليهودىّ « إسحق » وتكفّل هذا بدفع المبلغ نيابةً عن الرّاهب «أيمر» واستعدّ الرّاهب للمسير فاستوقفه الزّعيم وقال له :

ـ « ألا ترى أن اليهودىّ "إسحق" قد أسدى إليك معروفاً جميلا ؟ ألا ترى أن تسدى أنت أيضاً إليه يداً كريمة ؟ » فقال « أيمر » :

ـ « ماذا تريدنى أن أفعل فى سبيله ؟ » فقال الزعيم :

ـ « إن صديقك الفارس "بوا جلبرت" قد خطف ابنته فاجعله

يردّ الفتاة إلى أبيها » .

فأخرج الرّاهب « أيمر » من جيبه ورقاً وقلماً وكتب رسالة إلى « بوا جلبرت » وسلّمها إلى "إسحق" العجوز وقال له :

— « اذهب بهذه الرسالة إلى "بوا جلبرت" وهو يردّ لك ابنتك » .

فتسلّم « إسحق » الرسالة وودّع الحاضرين وانصرف شاكراً يحرسه ثلاثة من الرّجال ساروا معه لكي يوصلوه إلى مدخل الغابة. وكان الفارس الأسود قد تتبّع هذه الحوادث صامتاً لاينبس ببنت شفة ، فاقترب من الزّعيم مودّعاً، وأثنى على ما رآه فيه وفي رجاله من بطولة وشجاعة وما قدره فيهم من حبّ للخير والفضل، مع أنهم جماعة عرفت بالشرّ والخروج على القانون» . فقال الزّعيم :

— « إن الشجرة الرديئة قد تحمل أحياناً ثمراً شهيّاً ، ولاتنس ياسيّدى أن الحوادث المؤلمة والظلم والاستبداد قد حملت هؤلاء الناس على أن يعيشوا على هامش الحياة ». فقال الفارس الأسود :

— « صدقت وأحسب أن زعيمهم الذى أخاطبه رجل نبيل فاضل لم يعرف التمرد والعصيان إلا لسبب وجيه» . فقال الزّعيم .

— « لكلٍّ منا سرّه الخفيّ ! يا سيّدى الفارس ...» فقال الفارس الأسود :

— « قد نتقابل فى يوم قريب ويكشف كل منّا للآخر عن حقيقة

حاله . ونصيحتى إليك قبل أن استودعك الله أن تتفرق أنت ورجالك قبل أن يفاجئكم جند "دى براسى"» أو جند"بوا جلبرت" إذا علموا بما حلّ بالقلعة ، فما هم عن هذا المكان ببعداء » فقال الزّعيم :

ـ « شكراً يا سيّدى وألف شكر . . . »





١٧

كان الأمير «حنّا» قد أولم فى ذلك اليوم وليمة فخمة فى قصره بمدينة « يورك » جمع فيها الأعوان والأنصار من الفرسان والأمراء وكبار الرهبان ليضع معهم خطّة العمل فى محاربة « ريكردوس » الملك والاستيلاء على عرشه .

ولقد ساءه أن لا يرى فى الحاضرين أعوانه الثلاثة المخلصين وهم « جبهة الثّور » و « دى براسى » و « بوا جلبرت » فبدأ يصدق ما انتهى إليه من أخبار عنهم ، فقد أذيع فى اليوم التالى للمعركة بعض الأنباء المتضاربة عن حادث القلعة وأن الفرسان الثلاثة قد قتلوا أو أسروا . . .

وبينما كان الأمير يفكّر في أعوانه الثلاثة إذا بأحدهم « دي براسي » يدخل البهو أشعثَ أغبر متصبّب العرق ، فهتف به الأمير وقال :

— « تعال يا "دي براسي" . . . أسرع . . . قل لنا أتمرّد السّكسون؟ أين "جبهة الثّور" وأين "بوا جلبرت" ؟ » فقال « دي براسي » :

— « "بوا جلبرت" لاذ بالفرار ! ! أما "جبهة الثّور" فمدفون تحت أنقاض قلعته ولم يسلم من الموت غيري أنا فهرعت أحدّثكم بما جرى » فقال الأمير :

— « وماذا جرى ؟ » فقال « دي براسي » :

— « يجب أن تعلموا أولا أن "ريكردوس" في إنجلترا ! » فقال أحدهم

— « أضغاث أحلام ! ! » فقال « دي براسي » :

— « رأيته وحدّثني ! »

فاصفرّ وجه الأمير «حنقًا» وأسند ظهره إلى المقعد حتى يحتفظ بقواه ، وانقسم الحاضرون إلى مكذّب ومصدّق فقال « دي براسي » :

— « لقد حدّثته وكنت أسيره » . فقال الأمير :

— « أكنت أسير "ريكردوس" ؟ » فقال « دي براسي » :

— « كنت أسير "ريكردوس قلب الأسد" ملك إنجلترا ! » فقال الأمير :

— « أهو إذن على رأس جيش من الجيوش ؟ ! » فقال « دي براسي »

– « كلا ! فلم يكن معه إلا جماعة من الخارجين على القانون يجهلون من هو ، وإنما انضمّ إليهم مصادفة ليشترك معهم فى فتح القلعة » . فقال أحدهم :

– « لا يستغرب منه ذلك فهو لا يألو طلباً للنزال والقتال كالفرسان التّائهين ويهمل شؤون بلاده ! »

وخاض الحاضرون فى مختلف الأحاديث بعد هذا النّبأ الخطِر ولم يقطع عليهم سبيلها إلا صوت الأمير « حنّا » يقول متهكّماً متوعّداً :

– « أفى السّاعة التى تقتربون فيها من الجاه والعزّ والغنى والسّلطان تنخذل قواكم وتتفكك أوصالكم ؟ ! » فقال « دى براسى » :

– « إن إنجلترا كلها ستنضوى تحت لوائه إذا عرفت أنه وصل إليها. فالصفقة خاسرة يا سيّدى الأمير ، وأنصح سموّك بالالتجاء إلى فرنسا » .

فقطّب الأمير حاجبيه وقال :

– « إن الذى ترتعد فرائصكم من ذكره يتنقّل فى القرى وحيداً ، فمن أيسر الأمور اعتقاله والقبض عليه » . فقال « دى براسى » :

– « ما أنا من يقوم بمثل هذه المهمّة . لقد كنت أسيره فعفا عنى وأطلق سراحى فلن أمسّ ريشة فى قبّعته » .

فاستشاط الأمير غضباً وتداخل الفرسان فى الموضوع ليصلحوا ذات البين بين الأمير و « دى براسى » وتطوّع أحد الفرسان بالقيام بالمهمّة

المطلوبة ، وارفضّ المجلس على هذا النّحو ، ودعا الأمير مدير الشّرطة وأمره بأن يتتبّع حركات « دى براسى » وسكناته . . .





١٨

ركب « إسحق » الدابة التى أهداها إليه زعيم رجال الغابات وحثّ السّير بعد أن تركه حرّاسه الثلاثة عند مدخل الغابة ليصل إلى « بوا جلبرت » ولكن التّعب كان قد أخذ منه مأخذه فعرّج على مدينة صغيرة فى طريقه، ورأى أن يزور فيها صديقه الحاخام« ناتان» ويستريح عنده قليلا ثم يستأنف السير .

استقبله الحاخام بالتّكريم والتّرحاب ، غير أنه نصحه بأن لا يذهب إلى « بوا جلبرت » فى ذلك اليوم لأن الرئيس العام لفرسان الهيكل ، وهو رجل صارم قاس موجود الآن فى الدير الذى ينتمى إليه « بوا جلبرت » وقد

جاء يفتّش ويحقّق ويوقع أشدّ العقاب بالفرسان الذين تحوم حولهم الشّبهات. ولما أنهى إليه « إسحق » بالسّبب الذى يدفعه إلى لقاء « بوا جلبرت» أسف وتحسّر على الفتاة « رفقة » وأوصاه أن يكون حريصاً حذراً ، ولا سيما أن « رفقة » يتهمها الناس بالسحر والشعوذة بعد الخدمات الجليلة التى أدّتها للمرضى وذوى العاهات .

فودّعه « إسحق » وتابع سيره حتى وصل إلى الدّير الذى ينشده ، وكان الرئيس العام فى تلك الساعة يتمشّى فى حديقة الدير هو ووكيله ويتجاذب معه أطراف الحديث عن الحال المؤلمة التى وصل إليها الفرسان ، فقد نسوا أنهم كانوا أوّلا رهباناً نذروا الفقر والتقشّف ، فلما لبسوا ملابس الفرسان وخاضوا غمرات الحروب غرّتهم الدنيا بمباهجها فاستسلموا إلى الملذات والتّرف .

وفى أثناء هذا الحديث قدم إلى الرئيس العام خادم يقول إن بالباب رجلا يهوديًّا يرغب فى مقابلة « بوا جلبرت» فاغتبط الرّئيس بهذه المقابلة لعله يستشفّ منها شيئاً عن سلوك « بوا جلبرت » فى الحياة ، فأذن فى إدخال اليهودىّ ، فجاء هذا منحنى الظّهر يرتجف فرَقاً ، فلمّا صار على بعد ثلاث خطوات من الرّئيس استوقفه هذا وقال :

— « قف مكانك وأجبنى عما أسألك عنه ، وحذار من الكذب وإلا انتزعت لسانك من فمك ! . . ما علاقتك بأخينا "بوا جلبرت"؟ »



فارتاع « إسحق » من ذلك الاستقبال وسكت ولم يجب .

فاستأنف الرئيس وقال :

ــ « أجب ولا تخف ، لماذا تريد أن ترى أخانا "بوا جلبرت" ؟ »

فقال « إسحق » وهو يتمتم :

ــ « إن معي يا صاحب السيادة رسالةً إليه من سيادة الرّاهب "أيمر" »

فقال الرئيس :

ــ « هات الرسالة ! »

فناوله « إسحق » إياها بيد مرتعشة ، فأمر الرئيس وكيله أن يتناولها ويقرأها فقال الوكيل :

ــ « أأفضّ الرسالة يا مولاى ؟ » فقال الرّئيس :

ــ « ولم لا ؟ أليست قوانيننا تنصّ على حق الرئيس فى قراءة رسائل الأعضاء ؟ » فقرأ الوكيل بصوت عال ما يأتى :

« عزيزى "بوا جلبرت" »

سلام وتحيّة ، أرجو أن تكون فى سلامة وعافية متمتّعاً بمباهج الحياة ونِعَم إله الخمر ، أمّا أنا فإنى الآن أسير قوم لا يخافون الله ولا يرهبون الشّيطان ، أسرونى طلباً للفدية ، ومنهم علمت بنكبة صديقنا "جبهة الثّور" كذلك أخبرونى أنك هربت مع الساحرة اليهودية الجميلة التى سحرتك بسواد عينيها . يسرّنى أن أعرف أنك فى أمان ولكننى أحذّرك من هذه السّاحرة ،

فقد علمت أن رئيسكم العام سيجيء إلى إنجلترا لكى يحرمك مباهج الحياة فكن على حذر . . . إن والد اليهوديّة الحسناء هو الثرىّ المعروف "إسحق يورك" فقد طلب إلىّ أن أوصيك به خيراً فكتبت له هذه الرّسالة، ونصيحتى إليك أن تقبل منه الفدية عن ابنته ولا تنس حصّتى من المبلغ عندما نتقابل ونقرع الكأس بالكأس وإلى اللقاء . . .

حرّر عند الصباح فى معقل قطّاع الطرق .

أيمر »

فامتعض الرئيس عندَ سماعه نصّ الرسالة فسأل « إسحق » :

ـ « هل ابنتك أسيرة " بوا جلبرت " ؟ » فقال :

ـ « نعم يا سيّدى الرئيس... وكلّ ما يستطيع والد فقير أن يدفعه ...»

فقاطعه الرئيس وأمره بأن يلتزم الرّدّ على ما يطرحه عليه من أسئلة لا أكثر ولا أقلّ ثم قال :

ـ « هل تسمى ابنتك "رفقة" ؟ هل تمارس فنّ شفاء الأمراض ؟ »

فقال « إسحق » :

ـ « نعم يا سيّدى الرئيس ولها فى ذلك مأثرات جليلة ، فكم من مريض شفته بعنايتها ومهارتها ! » فقال الرّئيس :

ـ « ألا تشفى المرضى بوساطة السّحر والطلاسم ؟ » فقال « إسحق » :

ـ « لا يا سيدى الرّئيس وإنما تشفى المرضى بمرهم عظيم المفعول ! »

فقال الرّئيس :

ــ « ومَن أعطاها سرّ ذلك المرهم ؟ » فقال « إسحق » :

ــ « امرأة من طائفتنا وجنسنا ! » فقال الرّئيس :

ــ « وما اسمها ؟ » فقال « إسحق » وهو يرتجف :

ــ « اسمها " مريام " يا سيّدى الرئيس ! » فقال الرئيس :

ــ « " مريام " ! تلك الساحرة التى أحرِقت وذرّ رمادها فى الهواء ؟ قتلنى الله إن لم أذِق تلميذتها مثل مصيرها ! . . . اطرحوا هذا اليهودى خارج الدير ، وإن رجع فاقتلوه ! أما ابنته فسوف نحاكمها وفقاً لقوانيننا العادلة . . . » .

فطرد « إسحق » شرّ طرد وهرول إلى الحاخام « ناتان » يروى له قصته الأليمة . . . أمّا الرّئيس العام فقد تملكه الغضب فاستدعى مدير الدير وخاطبه محنقاً وهو يقول :

ــ « إذن سمحت لأحد إخوتنا بإيواء فتاة يهوديّة فى هذا الدّير ؟ ! »

فسكت المدير وقد أيقن بالهلاك واستأنف الرئيس فقال :

ــ « فتاة يهوديّة صناعتها السحر والشّعوذة ! ! » فقال المدير وقد تلمس باباً للفرج :

ــ « إنك يا مولاى أضأت لى دياجى الحيرة والقلق . . . لقد كنت أعجب كيف أن فارسنا الشّجاع يهيم بيهوديّة ، أمّا وقد قلت يا مولاى إنها

ساحرة مشعوذة فقد بان الصبح لذى عينين ، فلا بد أنها سحرت فارسنا " بوا جلبرت " وجعلته يهيم بها ، وأنا ما سمحت بدخولها هذا الدير إلا على أمل إنقاذ أخينا من براثنها » . فقال الرئيس :

– « لا بدّ إذن من موتها ! » فقال وكيل الدير :

– « وهل تسمح لنا القوانين بالحكم عليها بالموت ؟ » فقال الرّئيس :

– « وكيف لا؟ من حق كلّ قاضٍ تنفيذ أحكامه فى دائرته ؟ فإن أصغر "بارون" يحقّ له أن يعتقل ويحاكم ويميت أيّة ساحرة توجد فى أراضيه ، فهل يمتنع هذا الحق على الرئيس العام لدير فرسان الهيكل إذا كانت الساحرة فى أرضه ؟ هيّا أعدوا قاعة المحاكمة ! »

فانحنى المدير وانصرف وسارع إلى « بوا جلبرت » وكان له صديقاً حميا ليفضى إليه بما حدث ، فوجده يغلى من الغضب على « رفقة » التى رفضت أن تقبله زوجاً لها ، فأطلعه المدير على نيّة الرّئيس العام بالحكم على الفتاة بالموت لأنه يعدّها ساحرةً مشعوذةً فازداد غضب «بوا جلبرت» وقال لصاحبه :

– «ماذا تقول عنّا العصور المقبلة؟ وبماذا تصف تعصّبنا هذا الذّميم؟ لا ، لا يا عزيزى يجب أن نوطئ للفتاة سبيل الهرب ، وأنا كفيل بأن أنقلها إلى مكان أمين ! » فقال المدير :

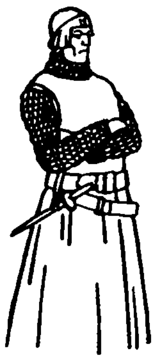
– « لقد فات الأوان فجميع الأبواب موصدة يقوم عليها حرّاس

الرّئيس ، فاترك هذه الفتاة لمصيرها إذا كنت لا تريد أن تهلك معها . . . أستودعك الله . . . أخشى أن يرونا معاً فأهلك أنا الآخر . . . »

وعند الظهر دقّ جرس الدير اثنتى عشرة دقّة ، وسمعت « رفقة » وقع أقدام فى الرّواق المفضى إلى غرفتها ، ثم رأت الباب يفتح ويدخل منه مدير الدّير يحيط به أربعة من الحراس الشّاكّى السلاح فقال لها :

– « انهضى أيّتها اللعينة واتّبعينا ! »

فخرجت من الغرفة يتقدّمها الحرّاس حتى انتهوا بها إلى قاعة المحكمة ، وبينا هى تسير شعرت برجل يدسّ ورقةً فى يدها فأخذتها منه عفواً دون تفكير ، ولما ثاب إليها وعيها ارتاحت لوجود صديق لها بين جدران ذلك الدّير فقرّرت الاحتفاظ بالورقة .





١٩

جلست « رفقة » فى مكان الاتّهام وأحاط بها الحرس من كل جانب ، ثم دخلت بعد قليل هيئة المحكمة ، وجلس أعضاؤها فى المنصّة المخصّصة بهم يتوسّطهم الرّئيس العام ، وكان خبر المحاكمة قد سرى فى القرية فأقبل جمع غفير من الناس يشهدون محاكمة اليهوديّة السّاحرة .

وشهد « بوا جلبرت » المحاكمة ولكنه لم يجلس فى المكان المخصّص بكبار الفرسان ، بل وقف فى جانب من جوانب القاعة شارد اللبّ يخطّط أرض القاعة برأس سيفه الطويل . فنظر إليه الرئيس العام ثم التفت إلى وكيل الدّير الجالس عن يمينه وقال له :

ـ « انظر إلى " بوا جلبرت " المسكين ! ياالله مما فعلت به هذه السّاحرة ! ولكننا سننقذه منها ! » ثم رفع صوته فقال :

« يا إخوتى الفرسان أعضاء رهبانيّتنا الجليلة ! ويا أيها الجمع المؤمن الكريم ! باسم الله نفتتح الجلسه لمحاكمة يهوديّة تدعى "رفقة" ابنة المدعو " إسحق يورك " المعروفة بممارستها السّحر والشّعوذة . لقد استخدمت هذه الفتاة سحرها وطلاسمها للعبث بقلب فارس من أشهر فرساننا بطولة وأشجعهم فؤاداً هو أخونا الفارس " بوا جلبرت " فحملته على الضّرب بقوانين أخويّتنا عُرض الحائط ، فآواها إلى هذا الدّير ، وأعماه سحرها فحماها ودافع عنها واستحقّ بذلك أن يطرد من أخويّتنا . على أنه إذا كان الشّيطان قد استولى على فؤاده فمن واجبنا أن نخلّصه من مخالب الشّيطان ، وأن نوجّه القِصاص الصارم إلى عميلة إبليس ، فليتقدّم إذن الشهود من أخويّتنا وينيروا الطريق للمحكمة » .

واستمعت المحكمة للشهود واحداً واحداً ، واستوحى هؤلاء خيالهم فصوّروا المتهمة فى صورة روح خبيث قذفه الشّيطان إلى هذا العالم ، وصوّروا « بوا جلبرت » فى صورة المسحور المغلوب على أمره . ولما فرغوا من أداء شهاداتهم قال الرّئيس موجهاً الخطاب إلى « بوا جلبرت » :

ـ « سمعت يا " بوا جلبرت " أقوال الشهود فما ردّك عليها وما علاقتك بهذه اليهودية ؟ »

فسكت « بوا جلبرت » ولم يجب فصاح الرئيس :

– « إن شيطاناً أخرس قد استولى عليه، فابتعد أيّها الشّيطان ! وأنت يا "بوا جلبرت" أستحلفك بالله أن تجيب ! » فقال « بوا جلبرت » :

– « إن "بوا جلبرت" ياسيّدى الرّئيس يحتقر التُّهم الغامضة الرخيصة التى لا يقبلها العقل، أمّا إذا وضع شرفه موضع الاتّهام فهو يعرف أن يدافع عنه بهذا السّيف » . فقال الرّئيس :

– « إن مباهاتك خطأ جديد ترتكبه ، ولكننا نعزوه إلى العدوّ المستولى عليك » .

وسأل الرئيس جموع الشّعب هل فيهم من يعرف شيئاً عن شعوذة المتّهمة ؟ فتقدّم غير واحد ينسب إليها الخوارق والمعجزات ، فهذا كسيح شفته بكلمة ، وهذا جريح أبرأته بلمسة، إلى ما شاكل ذلك من العجائب التى ينسجها الخيال . وكان إذا تقدم شاهد يدفع عنها هذه التّهم عدّه الرّئيس مأخوذاً بوحى الشّيطان فأسكته وصرفه .

ونادى الرّئيس المتّهمة وأمرها برفع لثامها فرفعته، فأخذ الحضور بجمالها الرّائع ، وبدت منهم همهمات التّكبير والإعجاب، فقطع الرّئيس ذلك الصّمت النّاطق وقال للمتّهمة :

– « أعندك ما تردّين به على الحكم الذى ستصدره المحكمة عليك ؟ »

فقالت بصوت مرتجف :

ـ « إذا طلبت الرّحمة فسوف يحول دونها تعصّبكم لدينكم ، وإن كذّبت الشّهود رميتموني بالإفك والزّور والبطلان ، فلم يبق إلا أن تطلبوا من فارسكم " بوا جلبرت" أن يقول لكم ما يعرفه عني » .

والتفتت إلى « بوا جلبرت» وقالت :

ـ « عليك أنت يا " بوا جلبرت " أن تقول للمحكمة إني بريئة من هذه التهم التي يلصقونها بي ! ! »

فالتزم« بوا جلبرت » الصّمت فاستحلفته « رفقة » أن يتكلم ، وطلب منه الرّئيس الطلب نفسه فبقي ملتزماً الصمت إلى أن سدّد نظرة طويلة إلى « رفقة » وصاح :

ـ « الورقة . الورقة . »

فقال الرئيس عند سماعه هذه الكلمة :

ـ « وهذا دليل جديد على أن فارسنا ضحيّة السّحر والشّعوذة . إنه يذكر الورقة . لا شك أنها الورقة التي خطت عليها المتّهمة أسرار طلاسمها فمنعته من الكلام » .

وذكّرت تلك الصيحة « رفقة » بالورقة التي دسّها بعضهم بيدها عند مرورها بالرّواق ، فرمت إليها نظرة مختلسة وقرأت فيها الجملة الآتية مكتوبة بالعربية :

– « اطلبى المبارزة القضائية واطلبى بطلا يدافع عنك » *
ولما حثّها الرئيس على الكلام قالت :
– « إن قوانينكم تسمح لى بأن أتلمّس الفرصة الأخيرة للنجاة، إنى بريئة . فاسمحوا لى بالمبارزة القضائية » فقال الرئيس :
– « إننا نسمح لك بها ولكن من يجرّد سلاحه فى سبيل ساحرة ؟ ! » فقالت :
– « الله قادر على كل شىء ، فقد يوجد فارس يدفعه النبل إلى الدّفاع عن العدالة . إليكم الرهن ! »
ورمت إلى الرئيس بقفازها الحريرىّ المطرّز ، فقال يوجّه الحديث إلى الفرسان :
– « لقد أجبنا هذه الفتاة إلى طلبها مع أننا مقتنعون بإثمها ، ولكن لِتَجْرِ إرادة الله وحكمه، فمَنْ نختار ليكون بطلنا ؟» فقال أحد الفرسان:
« لا أرى إلا أخانا "بوا جلبرت" حقيقاً بأن يكون بطلنا فهو محور الدعوى » .
ووافق الرّئيس على هذا الاختيار، ورمى إلى «بوا جلبرت» بقفاز الفتاة وقال :

(*) كان القضاة فى العصور الوسطى يأمرون أو يسمحون بالمبارزة القضائية فكان من حق المدعى عليه أن يطلب خصمه للمبارزة فمن ينتصر فيها كان هو صاحب الحق .

- « كن المدافع عن الحق فالله نصيرك، أمّا أنت يا فتاة، فإننا نمهلك ثلاثة أيّام لتجدى بطلك » . فقالت « رفقة » :

- « إن المهلة قصيرة ولكن لتكن مشيئة الله فهو المنتقم الجبار ! »

ولم يسع « بوا جلبرت » إلا القبول فقد نذر الطاعة لقوانين الأخويّة وأحكامها فضلا عن أن نكوصه يدمغه بالجبن والعار . وقبل أن يرفع الرّئيس الجلسة عيّن مكان المبارزة واختاره فى أحد الحقول التّابعة للدّير ، وجعله المكان الذى ستحرق فيه الفتاة فيما لو انهزم المدافع عنها . وطلبت « رفقة » من الرئيس أن يسمح لها بالكتابة إلى أهلها لتسألهم البحث عن مدافع عنها فأجابها إلى ما طلبت ، فكتبت بالعبرية كلمة عاجلة إلى والدها ، وتوسّلت إلى الحاضرين أن يتطوّع أحد بحمل الرّسالة إلى صاحبها فلم يجرؤ أحد على أن يتصدّى لسخط الرئيس وأعوانه ، وبينما كانت الفتاة تتلوّى يأساً وقنوطاً شقّ صفوف الجمع شابّ كانت « رفقة » قد شفته من مرض ألمّ به فيما مضى من الزمن ، وكان قد شهد لها فى المحكمة ، فتسلّم الرسالة وجرى يوصلها إلى والد الفتاة فالتقى به على مقربة من الدّير وسلّمه الرّقّ ، ففضّه بقلب مضطرب ويد مرتجفة وقرأ ما يلى :

« يا والدى العزيز

تّهمت بالسّحر والشّعوذة فحكموا علىّ بالموت ! فإن وجد رجل شجاع يدافع عنى بالرّمح أو بالسّيف وفقاً لعادات الناصريين فى خلال ثلاثة

أيام، فقد يهبه الله القوّة فى سبيل نصرة البراءة وطهارة الذّيل وإلا فلتنتحب علىّ بنات إسرائيل. وأعتقد أن "ولفرد أيفنهو" يقبل أن يجرّد السّلاح دفاعاً عنى ، ولكن لا أدرى أتسمح له صحّته بذلك أم لا ؟ وكيفما كان الأمر فأخبره أن الموت يحوم حولى لعلّه يستطيع بوساطة أحد أصدقائه الكبراء أن يحميني ، وقل له إن "رفقة" سواء ماتت أم عاشت فهى بريئة من التّهمة التى ألصقوها بها ، وإذا قدّر الله يا أبى أن تفقد ابنتك فاهجر هذه البلاد الدّامية، واستوطن فى قرطبة حيث يعيش أخوك آمناً حرًّا فى ظلال عرش أميرها العربى أبى عبد الله، فإن المسلمين أرحم باليهود من نصارى إنجلترا ! »

فلم يكد « إسحق » يأتى على آخر الرسالة حتى لطم خدّه ومزّق ثوبه وعفّر وجهه بالتّراب باكياً منتحباً فقال له الرّسول :

— « صبراً يا صاحبي فالبكاء والنحيب لا يجديان نفعاً ، فابحث عن هذا الذى تدعونه "أيفنهو" فقد قيل إنه أثير حبيب فى عين الملك "ريكردوس" الذى عاد إلى البلاد على ما يشاع » فقال « إسحق » :

— « نعم إنه لكذلك ، وإنه أمهر الفرسان وأشجعهم ، ولكن إذا كان لا يزال جريحاً فأىّ فارس نصرانىّ يقبل أن ينتضى سلاحه فى سبيل فتاة يهودية ؟ ! » فقال الرّسول :

— « لا تزال هذه الدّنيا عامرة بالشجعان الصُّلَحاء فلا تيأس . . . »

ثم حيّاه وعاد من حيث أتى .



٢٠

قضت « رفقة » نهارها تبتهل وتصلّي فسمعت بعد الأصيل نقرًا خفيفاً على باب سجنها فقالت :

ـ « إن كنت صديقاً فادخل ، وإن كنت عدوًّا فلا طاقة لى على منعك » .

فأجاب « بوا جلبرت » وهو داخل :

ـ « إن محادثتنا الساعة ستفصل بين صداقتى وعداوتى » .

تراجعت « رفقة » قليلا عند رؤيتها الرجل الذى كان أصل بلائها ونكبتها فقال لها :

– « لا تجزعي يا "رفقة" ولا تخافي » فقالت :

– « لست أخافك فالله معي ! » فقال :

–« إن على مقربة منك حرّاساً ينتظرون السّاعة التي يقودونك فيها إلى الموت ، فاخفضي صوتك فلو رأوني هنا لما نجوت من العقاب ! » فقالت :

– « وما الذي حملك على المجيء ؟ تكلم ثم اتركني وشأني ، فبيني وبين الموت خطوة قصيرة فدعني أستعدّ لها ما دمت لم تشأ أن تدافع عني وتعلن على الملأ براءتي ! » فقال :

– « إن دفاعي عنك ما كان لينفعك بشيء عند قوم عُمْي البصائر ضرب التّعصّب على أعينهم غشاوة كثيفة . اعلمي يا "رفقة" أني رجل لايخشى الموت ولايرهب أحداً على هذه الأرض ، ولكن الظروف قد تدفعني على تغيير خطّتي في الحياة ، فالورقة التي دسّت في يدك وحملتك على طلب المبارزة القضائية أنا صاحبها ! » فقالت :

– « أفعلتَ هذا لتكون خصمي ؟ ! » فقال :

– « ما كنت أتوقع وأنا في أعينهم المذنب الذي يودّون طرده من أخويّتهم أن يعهدوا إليّ في مهمّة الدّفاع عن دعواهم ... كان في نيتي أن أتنكّر في زيّ فارس تائه يبحث عن المغامرات ، فأتقدّم إلى الدّفاع عنك، ثم أكشف لك بعد النّصر أمري وأترقّب منك حسن الجزاء . . .» فقالت :

— « كلام معسول لا يردّ عنى فظاعة الميتة التى سأموتها » فقال :

— « إذا برزت فى ساحة المبارزة فالنّصر حليفى ما فى ذلك شك ، فما غلبنى أحد قطّ إلا "ريكردوس قلب الأسد" وهو الآن بعيد عن الدّيار وإلا "أيفنهو" وهو الآن جريح لا يقوى على حمل السّلاح . . . فإن تخلّفت عن المبارزة كانت الدعوى بلا بطل يدافع عنها فتسقط وتعلن براءتك ، ولكن ذلك يكلفنى ما لا أطيق من الخزى والعار ، ويوصمنى بميتة أدبيّة لا بعث لى بعدها ، ومع ذلك أرضى بهذا إذا قلت لى : "بوا جلبرت" سأكون زوجتك ! » فقالت :

— « كلامُ هُراء ... فإن كنت حقًّا تبغى إنقاذى فطِرْ إلى الأمير "حنّا" واطلب إليه أن يمنع إحراق فتاة بريئة ! » فقال :

— «إن الأمير "حنّا" فى حاجة إلى رضى الرّئيس العام ومؤازرته ... "رفقة" ! تعالى نهرب معاً فبلاد الله واسعة نعيش فيها آمنين مطمئنّين... تعالى نذهب إلى فلسطين فأحارب فى صفوف صلاح الدّين ، وأبنى لك من حبي ومن مجدى عرشاً يظلّلك » فقالت :

— « رميتنى فى التّهلكة وقمت الآن تزيّن لى الحياة ! اتركنى وشأنى يا رجل فعندى من الشّجاعة ما أستقبل به الموت ! » فقال :

— « يعزّ علىّ أن نفترق عدوّين لنلتقى فى ساحة المبارزة على أفظع صورة . إن قوّة ذراعى وشدّة بأسى سيجلبان عليك الهلاك ، لأن شرفى

يحتّم عليّ أن أكون الظّافر المنتصر . . .

لقد أردت أن أضحّى بشرفى فى سبيلك فأبيت فوداعاً يا "رفقة" وسامحينى » .

واندفع إلى الباب كالعاصف الهدّار ، وكان صديقه وكيل الدّير ينتظره على أحرّ من الجمر فلما رآه قال :

— « أطلت الزّيارة . . . ولكن ما بك ؟ مالك تترنّح كالسّكران ؟ ! »

فقال :

— « لقد جرّدتنى هذه الفتاة من كل سلاح بشجاعتها الفائقة الحدّ . إن نفسى تحدّثنى بأن أذهب إلى الرئيس العام وأقول له إنى منسحب من أخويّتكم فلا تعتمدوا عليّ فى القيام بهذه المهمّة الشنعاء التى تكلونها إلىّ » .

فقال وكيل الدير :

— « أجُننت يا صديقى ؟ لو فعلت هذا لحكمت على نفسك بالهلاك ، ولما كان فى عملك أىّ أمل فى إنقاذ الفتاة . . . يجب أن تبارز مدافعاً عن الدّير وإلا فقدت الشّرف والحياة ! » فقال :

— « سأهرب من الدير ولا ألوّث يدى بدم هذه الضّحيّة البريئة ! »

فقال :

— « الأبواب كلها موصدة وعليها حراسة شديدة ، وَهَبْك تمكّنت من الفرار ألا تفكّر بالعار الذى ستصم به نفسك وأسرتك حين يقال إن

"بوا جلبرت" صاحب الأعمال الباهرة فى ميادين القتال ، ومنافس "ريكردوس" فى الشّجاعة والبطولة ، إنما هو فارس جبان قد خان شرفه وقومه فى سبيل فتاة يهوديّة . . . انتهى بها الأمر مع ذلك إلى المحرقة ! »

فقال :

— « إنك لتمسّ يا صديقى الوتر الحسّاس ... سأنزل ساحة المبارزة وليناهضنى فيها "ريكردوس" نفسه أو أحد أعوانه الفتيان ! »





٢١

لما افترق الفارس الأسود عن رجال الغابات انطلق إلى كوخ راهب قريب ، كان « جرث » و « ومبا » قد نقلا إليه « أيفنهو » بعد الاستيلاء على القلعة ، فمكث لديه ساعة يعوده ويطمئنّ عليه ، ثم أنهى إليه أنه سيزور والده «سدريك» ويتكفّل بإصلاح الخلاف بينهما فقال « أيفنهو» :

ــ « أصحبك فى الحال » فقال الفارس الأسود :

ــ « لا . إن جراحك تكاد تلتئم ، ويكفى أن تلحق بى غداً ، وحسبى أن أصحب معى "ومبا" ليدلّنى على الطريق وليسلّينى فيه » فقال « أيفنهو» :

ــ « ما من أحد يعرف خبايا الطّريق مثل « ومبا » ولكننى أخشى أن

يضايقك بثرثرته » فقال :

– « لا تخش بأساً » .

ومدّ يده إلى « أيفنهو » فقبّلها ، ثم امتطى صهوة جواده وسار به يتبعه «ومبا» . وبقى « أيفنهو » يشيّعهما بأنظاره حتى تواريا وراء الأشجار فعاد إلى كوخه . ولكنه بعد نحو ساعة من الزمن حدّثته نفسه أن الفارس الأسود ، وهو رجل نورمانى ، قد يستقبله السّكسون استقبالا سيّئاً عندما يحصل بينهم ، أو قد يعترض سبيله بعض الحمقى ، فكيف لا يكون إلى جانبه يدفع عنه الطّوارئ والأحداث ، فنهض يودّع الرّاهب الذى استضافه ولبس درعه ثم ركب جواد الراهب وانطلق يتبعه « جرث » . وعبثاً حاول الرّاهب أن يستبقيه مذكّراً إياه بأن جراحه حديثة العهد بالالتئام ، وأنه محتاج إلى الراحة والاستجمام ، فلم يكترث « أيفنهو » لكلامه ، وأجابه أنه يشعر بالعافية تدبّ فى أوصاله بحيث يستطيع أن ينازل جيشاً برمّته .

وكان الفارس الأسود و « ومبا » يتوغّلان من غابة إلى غابة ، والفارس يستمع إلى نكات رفيقه مغتبطاً مسروراً ، ولمح « ومبا » البوق الذى أهداه زعيم رجال الغابات إلى الفارس الأسود يتدلّى فى وسطه ، فسأله أن يريه إيّاه ففعل ، وأخذ يقلبه بين يديه ويتلقّى من الفارس الأسود طريقة النّفخات الثلاث التى علّمه إياها زعيم رجال الغابات وطلب منه أن ينفخها إذا احتاج إلى العون والغياث .

وبينا هما سائران يتحدّثان ويمزحان كأن لا كلفة بينهما ، سمع فى الغابة صفير سهم أصاب خوذة الفارس الأسود فتحطّم عليها ، ثم عقبه سهمان آخران تحطّما على التّرس الذى كان يحمله فوق كتفه، فتدارى مسرعاً وراء شجرة ليقى نفسه ولينظر من أين تهبط عليه هذه السّهام ، وفعل « ومبا » مثله ، وإذا بسبعة فرسان يقودهم فارس مقنّع يبرزون فجأة والسّيوف فى أيديهم، وينقضّون على الفارس الأسود، فيجرّد هذا سيفه بأسرع من تردّد الطّرف ، ويهوى به على اثنين منهم كانا فى طليعة المهاجمين فيرميهما مثخنين بالجراح ، ويستدير لمواجهة الباقين . وفى هذه اللحظة أشرع رئيس المهاجمين رمحه وطعن به جواد الفارس الأسود فسقط يتخبّط بدمه، ولكن فارسه قفز من ظهره إلى الأرض واستعدّ لملاقاة ذلك النّذل الغدّار .

رأى « ومبا » الخطر محدقاً بالفارس الأسود فأمسك بالبوق ونفخ فيه النفخات الثلاث، فصفر فى الحال سهم أطلقته يد مجهولة ، وحطّ فى عنق أحد المهاجمين فخرّ صريعاً ، وامتلأ المكان بعد ذلك بعدد من رجال الغابات يتقدّمهم زعيمهم والأخ « تك » والأقواس مشرعة فى أيديهم ، فكفّ الفرسان عن القتال مستسلمين، وتقدّم الفارس الأسود من رئيس المهاجمين وأمره برفع قناعه فإذا هو مدير الشرطة ، فانتحى به ناحية وسأله عمّن دفعه إلى هذا الفعل الأثيم فقال الرّجل وهو يتلعثم من الخجل والخوف

ـ « شقيقك الأمير "حنا" يا مولاى ! » فقال الفارس الأسود :

ـ « إنى أعفو عنك، وآمرك بمغادرة البلاد والتغيب عنها ثلاثة أيام ، وحذار أن تلفظ اسم أخى أو اسم أحد من أسرتى فى معرض الاتهام ، فإن بلغنى عنك شىء من هذا أمرت بقتلك شر قتلة » .

ثم وجه الفارس الأسود خطابه إلى زعيم رجال الغابات وقال :

ـ « اسمح يا عزيزى لهذا الفارس بالانصراف » ، فقال الزعيم :

ـ « أمرك مطاع يا سيدى وإلا كان نصيب هذا الوغد سهماً يخترق عنقه » . فقال الفارس الأسود :

ـ « إنك أيها الفتى الكريم لصاحب نفس نبيلة ، وإنك لعلى صواب فى أن تطيعنى وتمتثل لأمرى فأنا " ريكردوس " ملك إنجلترا ! »

فركع جميع الحاضرين ، وأقسموا يمين الولاء للملك فقال لهم « ريكردوس » :

ـ « انهضوا يا أصحابى ، إن الجميل الذى أسديتموه لرعاياى المظلومين فى حادث القلعة والذى قدمتموه لى الآن يمحو كل ما قد تكونون ارتكبتموه من أخطاء . . . كونوا أبداً رعايا مخلصين ، واجتهدوا منذ اليوم أن تعيشوا فى ظلال القانون وتحيوا حياة منظمة ، وأما أنت أيها الفتى الزعيم . . . »

فقال زعيمهم :

— « مولاى ما أنا إلا خادمك المطيع " روبن هود "» فقال الملك :

— « طالما سمعت بهذا الاسم وأنا فى فلسطين ، وثق أنك لن تحاسب على شىء ارتكبته فى هذه الأيام المضطربة التى كنتُ غائباً فيها عن مملكتى » .

وعلا فى الجمع صوت يقول :

— « خطيئتى عظيمة ! خطيئتى عظيمة ! »

فالتفت الملك إلى مصدر الصوت فإذا هو صوت الرّاهب « تك » فقال الملك مبتسما :

— « وأنت أيضاً مغفورة لك خطاياك ! »

وقطع على الملك المضىّ فى السماح والإنعام قدوم رجلين هما « أيفنهو » و« جرث » .





٢٢

ألقى « أيفنهو » نظرة سريعة إلى الحاضرين فلم يعرف أللملك يوجّه التحيّة الواجبة أم للفارس الأسود فبدّد الملك حيرته وقال :

ــ إن " ريكردوس " يا عزيزى " أيفنهو " قد عرّف القوم مَنْ هو ، ويسرّه أن يكون محاطاً برجال تختلج فى صدورهم قلوب نقيّة عامرة بالوطنية وإن كانوا يحملون فوق أكتافهم رؤوساً قاسية كالصّخر » .

فقال « روبن هود » مخاطباً « أيفنهو » :

ــ « اسمح لى يا سيّدى " أيفنهو " أن أقول إننى ورفقائى من أخلص الناس لجلالة الملك ! » فقال « أيفنهو » :

— « لا شك فى ذلك ما دمت أنت فيهم ، ولكن ما معنى هذه الجثث المطروحة على الأرض ؟ وهذا الدم الملوّثة به أسلحة الملك ؟ » فقال الملك :

— « خيانة ارتكبت ، والفضل فى سلامتى لشجاعة "روبن هود" ورجاله . . . ولكن . . . أنت خنتنى أيضاً وعصيت أمرى » .

فقال « أيفنهو » :

— « إن جراحاتى يا مولاى لم تعد إلا وخزات إبر ، ولكن لماذا تعرّض نفسك يا مولاى للأخطار فحياتك أغلى من حياة فارس تائه ، وبلادك تكاد تنشب فيها حرب أهليّة ، وتاجك فى خطر ، ورعاياك يتعرّضون لأفدح الشّرور والأضرار إذا فقدوك يا مولاى ! » فقال الملك :

— « إن رعاياى يعاملوننى معاملة قاسية فهذا واحد منهم يعصى أمرى ويطالعنى بالوعظ والإرشاد . . . اسمع يا عزيزى "أيفنهو" : كان يجب أن أبقى متخفّياً حتى أعدّ العدّة لقمع كل تمرّد أو ثورة ، وأمشى على رأس جيش وفىّ مخلص ، واليوم أستطيع أن أكشف عن نفسى وأعلن عن وجودى فقد وثقت من أعوانى وقوّادى الأوفياء وهم ينتظرون إشارة منى لوضع الأمور فى نصابها » .

فسكت « أيفنهو » مفحماً ثم استأنف الملك حديثه فقال :

— « لقد وعدت النبيل "سدريك" بزيارة فهيّا اصحبونى إليه » .

وسار الملك وإلى جانبه « أيفنهو » و « روبن هود » يتبعهم الأخ

« تلك » و « ومبا » و « جرث » فى حين تفرّق باقى الرجال فى الغابات بعد أن حيّوا الملك تحية صادقة وهتفوا له طويلا .

وعند الأصيل وصل الرّكب إلى قصر « سدريك » فتغلغل « ومبا » و « جرث » بين خدم القصر والحشم ، وصحبا معهما إليهم الرّاهب « تلك ».

أما الملك و « أيڤنهو » المتلثّم و « روبن هود » فقد خف « سدريك » إلى استقبالهم ، ورحّب بهم أجمل ترحيب ، ونادى « روناء » لتشاركه فى ذلك الترحيب ، وبقى « أيڤنهو » صامتاً طول مدة الزيارة حتى قال الملك :

ــ « تذكّر يا سيدى "سدريك" وعدك إياى بأن تجيبنى إلى ما أطلب منك ؟ » فقال « سدريك » وكان لا يزال يعرف محدثه باسم الفارس الأسود :

ــ « أذكر ذلك ولا أنساه ، فأطلب أجبك أيّها الفارس الشجاع ! »

فقال الملك :

ــ « لقد عرفتنى حتى اليوم باسم الفارس الأسود أو الأسود الخامل ولكن اعلم أن محدّثك هو " ريكردوس " ملك إنجلترا ! »

فاستولت على « سدريك » الدهشة ، وحاول أن ينهض ليؤدى التّجلّة اللائقة بالملك فاستوقفه هذا وقال :

ــ « خلّ عنك وأرجئ هذه التجلة إلى اليوم الذى ترانى فيه أحمى رعاياى سكسونيين كانوا أم نورمانيين . . . أما الآن فإنى أطلب منك أن



تمنح بركتك الأبويّة ابنك الفارس الشجاع « ولفرد أيفنهو » فإن لم تجبنى إلى ما أطلب عددتك رجلا لا تبرّ بوعودك » . فقال « سدريك » بصوت متهدّج تكاد تخنقه العبرات :

— « أهو هذا الفارس المتلثّم الذى يصحبك يا مولاى ؟»

فأزاح « أيفنهو » لثامه ، وارتمى على قدمى أبيه وهو يقول :

— « سامحنى يا أبى ! » فقال « سدريك » :

— « سامحتك وعفوت عنك ، إن "سدريك" رجل يفى بوعوده . ولكننى لا أريد أن أراك على هذا الزّىّ ، فعد إلى أزياء السكسون وملابسهم لتكون على الأقل أهلا لكى تخطب يد حسنائنا " روناء" » .

فأشرق وجه « روناء » و « أيفنهو » فرحاً ونظر إليهما « سدريك» نظرة مملوءة بالحبّ والحنان والاغتباط ثم قال لابنه :

— « اصعد فى غرفتك وبدّل ملابسك ثم ارجع إلينا » .

فخرج « أيفنهو » من الغرفة وطالت غيبته فاستوضح القوم شأنه فعرفوا أنه ترك القصر هو و « جرث » على أثر حديث جرى له مع رجل يهودىّ جاء يطلبه ، فتفقّد « سدريك » الآنسة « روناء » لينظر كيف وقع الخبر عليها فرآها قد نهضت مستأذنة فى الانصراف وتوارت عن أعين الناظرين .

ولشدّ ما دهش « سدريك » عند ما رأى الملك ينزل مسرعاً إلى

صحن القصر ويحادث الرجل اليهودىّ الذى جاء يطلب « أيفنهو » ثم يقفز إلى جواده ويطير به مسابقاً الرّياح .





٢٣

حان موعد المبارزة القضائيّة ، فأقبل الجمهور من كل حَدَبٍ وصَوْب ليشهد المبارزة التي ستقرّر مصير الفتاة « رفقة » المسكينة .

ولقد أُعِدّت فى طرف الساحة منصّة عالية لجلوس الرّئيس العام وأعضاء المحكمة ، وأقيمت فى الطرف الآخر محرقة فى وسطها وتد طويل وحواليها أربعة عبيد سود لا يتحرّكون كأنهم أصنام من الحجارة .

وسار الهَرْج والمرج فى الجمهور انتظاراً لساعة البدء فى القتال ، وما إن يدق جرس الدّير دقّاته المرعبة حتى تشرئبّ الأعناق إلى باب الدير فيفتح ويخرج منه فارس يحمل راية الدّير ووراءه كوكبة من الفرسان

يتوسّطهم رئيس الدّير ومن خلفه « بوا جلبرت » على فرس مطهّم وقد تدجّج بالسلاح من رأسه إلى أخمَص قدميه، وسار وراءه تابعان له يحملان الرّمح والسّيف والتّرس .وخرج من الدير بعد ذلك موكب آخر يتألف من الحرس الرّاجل ، وفى وسطه « رفقة » شاحبة اللون صفراء الجبين تمشى بخطّى هادئة ولكن غير متخاذلة . وكانوا قد استبدلوا بثيابها الشرقية ثوباً أبيض خشن الملمس . فوصل الموكب إلى ساحة المبارزة ، فطاف بها ثم أخذ الرّئيس العام وزملاؤه أمكنتهم من المنصّة، وبقى فى السّاحة الفارس « بوا جلبرت » وتابعاه . ثم وصل الموكب الثانى فأجلست « رفقة » على كرسى أسود وضع بإزاء المحرقة ، وعندما أبصرت تلك الأدوات الجهنميّة التى أعدت لها ارتعدت فرائصها فأغمضت عينيها كمن يصلّى بصوت خافت ثم فتحتهما وأدارتهما عن المحرقة ، وجلست على الكرسى موفورة العزم والشجاعة، ولمّا سكت دقّ الطبول تقدّم المنادى إلى وسط السّاحة فقال :

— « اسمعوا يا ناس ! هذا هو الفارس" بوا جلبرت" مستعدًّا لمنازلة أىّ فارس يرغب فى الدّفاع عن قضيّة الفتاة "رفقة" اليهوديّة .لقد سمحت المحكمة لها بهذا الدفاع ، فالرئيس العام الحاضر هنا يضمن للبطل المدافع قسمة عادلة فى الشّمس والهواء والسّلاح » .

وانتهى المنادى من ندائه فقرعت الطبول ثانية وأعقبها صمت شامل استمرّ بضع دقائق سمع الجمع بعدها الرّئيس العام يعلن قائلا :

– « لم يتقدّم أحد للدفاع عن الطالبة ، فاذهب أيّها المنادى واسأل المتّهمة هل تنتظر أحداً يتولّى الدّفاع عنها ؟ »

وفجأة أعمل « بوا جلبرت » مهمازه فى شاكلتى جواده فقفز به إلى قرب الفتاة .

وسأل عضو اليسار الرئيس العام قائلا :

– « يا سيّدى الرّئيس ! هل هذه الحركة التى قام بها أخونا " بوا جلبرت " تتمشّى وقوانين المبارزة ؟ » فقال الرئيس العام :

« أجل ! إن المبارزة القضائية تسمح بأن يتحدّث الخصوم معاً فى سبيل إظهار الحقيقة » .

وكان المنادى قد وصل أيضاً إلى الفتاة فقال :

– « أيّتها الفتاة اليهودية أجيبى عن سؤال حضرة الرّئيس العام المبجّل ، أتنتظرين بطلا يدافع عنك أم تستسلمين للحكم الصادر عليك بالموت طبقاً للقانون والعدالة ؟ » فقالت :

– « أنا بريئة وقد حكم علىّ ظلماً . . . وإنى أطالب بالمهلة التى يقرّنى عليها القانون ، لعل الله يرسل إلىّ فى خلالها منقذاً ينقذنى وإلا فلتكن مشيئة الله ! »

فعاد المنادى يرفع إلى الرئيس العام جواب الفتاة فقال الرّئيس :

– « معاذ الله أن يتّهمنى أحد بالعسف والظلم وعدم الإنصاف ،

فسننتظر البطل المرتقب حتى تتحوّل الظلال من الغرب إلى الشّرق ، فإذا انقضت هذه المهلة فما على المحكوم عليها إلا أن تستعدّ للموت » .

فأحنت « رفقة » رأسها خاضعة مطيعة ، ثم رفعت نظرها إلى السماء كأنها تترقّب منها الغوث بعد إذ تخلّى عنها أهل الأرض ، ولم ينتشلها من ذهولها إلا صوت « بوا جلبرت » يقول لها :

« " رفقة " ! أتسمعيني ؟ » فقالت :

— « ليس لى أذن تسمعك ! » فقال :

— « اسمعيني واعلمى أن هذه الساحة وهذا الكرسى وهذه المحرقة كل هذا كابوس يهدّ أعصابى ! » فقالت :

« أمّا أنا فأعصابى تقول لى إن هذه المحرقة ستنقل نفسى إلى نعيم الأبديّة الخالد ! » فقال :

« أصغى إلىّ وافهميني ، فما زالت حياتك بين يدى ، فاسمحى أن أردفك على جوادى وأطير بك ، فجوادى فارِهٌ أصيل لا تلحق به أكرم الخيول ، وبعد دقائق نكون فى مأمن من هؤلاء المتعصبين فنحيا حياة جديدة كلها هناءة ومجد وسعادة » فقالت :

— « أحبّ إلىّ أن أسير إلى هذه المحرقة من أن أخطو خطوة واحدة فى سبيل اللحاق بك ! »

ولمّا طال الحديث بينهما سارع وكيل الدير إلى « بوا جلبرت » وقال له :

ـ « أأقرّت بإثمها أم لاتزال مصرّة على الإنكار؟» فقال « بوا جلبرت» بابتسامة مرّة :

ـ « إنها مصرّة » . فقال وكيل الدير :

ـ « ارجع إذن إلى مكانك فالشّمس تنحدر إلى المغيب . . . »

وعاد « بوا جلبرت » إلى مكانه واقتنع الجمع بأن الفتاة هالكة لا محالة، فما من أحد تقدّم للدّفاع عنها ، وعلى حين فجأة ترامت الأنظار إلى غبار يتصاعد فى الأفق فصاح الجمهور :

ـ « البطل ! البطل ! »

وفى أقل من تردّد الطرف وصل إلى وسط السّاحة ذلك الفارس الذى كان الغبار يتصاعد من تحت سنابك جواده وقال للمنادى الذى تقدّم إلى لقائه :

ـ « إنى فارس ونبيل، جئت إلى هذا المكان لأدافع بالرّمح وبالسّيف عن قضيّة الفتاة "رفقة"، ابنة " إسحق يورك" ولأتحدى "بوا جلبرت" وأطالبه للنّزال على أنه خائن وقاتل وكاذب . . .» فقال وكيل الدّير :

ـ « على هذا الغريب أن يثبت أولا أنه فارس من سلالة نبيلة فقوانين المبارزة تحتّم ذلك » .

فرفع الفارس قناعه وقال :

« إنى أنبل منك ومن أعوانك سلالةً . أنا " ولفرد أيفنهو " »

فقال « بوا جلبرت » :

« لن أنازلك حتى تشفى جراحك ، فإذا شفيت فتعالَ إلىّ لعلّى أرضى بأن أؤدّبك ! » فقال « أيفنهو » :

— « أنسيت أيّها الفارس المتعجرف أن رمحى طرحتك أرضاً مرتين؟ أنسيت مباراة "عكاء" ومباراة "أشبى" تذكّر تحدّيك إيّاى فى قصر "رازروود" والرّهان الذى عقدناه فأودعت أنت سلسلتك الذّهبيّة وأنا الذخيرة المباركة فوالله لئن لم تنازلنى فى الحال لأذيعنّ فى أنحاء أوربا كلها أنك رعديد جبان » .

ألقى « بوا جلبرت » نظرة طويلة إلى « رفقة » أردفها بنظرة كلها حقد وضغينة بعث بها إلى « أيفنهو » وقال له :

— « نعم سأنازلك أيها الكلب السّكسونىّ ، فأشرع رمحك واستعدّ للموت ! » فقال « أيفنهو » للرّئيس العام :

— « أيأذن لى حضرة الرّئيس فى النّزال ؟ » فقال :

— « إذا رضيت هذه الفتاة أن تكون بطلها فليس ما يحملنى على الرّفض » .

فالتفت « أيفنهو » إلى « رفقة » وقال :

— « أتقبلين أن أكون بطلك ؟ » فقالت :

— « أقبلُ أيّها الفارس "أيفنهو" وأرى فيك بطلا بعثته إلىّ السّماء ! »

واستدار « أيفنهو » إلى مكانه فى وسط السّاحة ، وتلقّى رمحه من يد تابعه « جرث » الذى كان قد لحق به وحذا « بوا جلبرت » حذوه فتلقّى رمحه من تابعه ، فلاحظ هذا أن وجه سيّده الموشّح بصفرة الأموات منذ الصباح قد استحال إلى لون الأرجوان كأن الدّم الجارى فى جسده كله قد تجمّع فى وجهه .

ورمى الرئيس العام بقفّاز « رفقة » فى وسط الساحة وأشار إلى الطّبول فقرعت ثم سكتت إيذاناً بابتداء القتال ، فانقضّ كلٌّ منهما على لآخر فلم يستطع أن يتحمّل « أيفنهو » عنف الصّدمة الأولى فقد كانت جراحه وشيكة عهد بالالتئام ، وكان جواده مرهقاً متعباً من الرّحلة الطويلة التى سابق فيها الرياح ، فعثر به الجواد وكاد يقع عن ظهره لولا براعته وطول تمرّسه بصهوات الجياد . وكرّ الفارسان كرّة ثانية دهش لها الحاضرون إذ رأوا « بوا جلبرت » يسقط عن جواده على أثر طعنة رمح خفيف يصيب بها « أيفنهو » ترس خصمه .

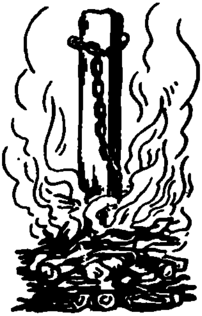
وبسرعة البرق ترجّل « أيفنهو » وامتشق حسامه وسدّده إلى عنق « بوا جلبرت » الذى كان ممدّداً على الأرض كأن لاحراك به وقال له :

— « استسلم إذا كنت لا تريد أن تموت ! »

فلم يجب « بوا جلبرت » ولكن الرّئيس العام صاح قائلا :

— « احقن دمه أيّها الفارس فقد أعلنّا أنك الغالب وهو المغلوب » .

ولما أمر الرّئيس العام بنزع خوذة « بوا جلبرت » شوهد وجهه محتقناً وعيناه مغمضتين وكان قد فارق الحياة من أثر احتقان دمه وشدّة الهياج والغضب لا من أثر الطعنة التى أصابه بها رمح « أيفنهو » .





٢٤

علم الرّئيس العام أن « بوا جلبرت » أصبح جثّة هامدة فقال :

ــ « لقد قضى الله قضاءه » .

فتقدّم « أيفنهو » من الرّئيس وقال :

ــ « هل قمت بواجبي يا سيّدى الرئيس وفق ما تقضى به الأمانة والشرف ؟ » فقال الرئيس :

ــ « كلّ القيام ، وها إنى أعلن من أعلى هذه المنصّة أن الفتاة "رفقة" بريئة حرّة وأن جسمان المغلوب وأسلحته هما من حق الغالب » . فقال « أيفنهو » :

ـ « لا أريد أن أمثّل بجثّة هذا الفارس فطالما أبلى البلاء الحسن فى ميادين فلسطين ، هذا ويد الله هى التى ضربته لا يدى . . . أمّا هذه الفتاة . . . »

وحال دون إتمام عبارته قدوم كوكبة من الفرسان على رأسهم « ريكردوس » فلما وصل إلى وسط الساحة قال :

ـ « لقد وصلت بعد الأوان ، فكان علىّ أنا أن أعاقب الفارس المتعجرف . . . أجننت أنت يا " ولفرد " حتى تقدم على مثل هذه المغامرة وجراحك لما تلتئم ؟ »

فسكت « أيفنهو » ولم يجب والتفت « ريكردوس » إلى قائد حرسه وقال له :

ـ « نفّذ ما أمرتك به ! »

فاقترب قائد الحرس من وكيل الدّير وقال :

ـ « ألقى القبض عليك بتهمة الخيانة العظمى ! » فقال الرّئيس العام :

ـ « من هذا الجرىء الذى يجسر أن يعتقل فارساً من فرسان الهيكل فى حرم ديره وفى حضرة الرّئيس العام ؟ » فقال « ريكردوس » :

ـ « إنه يعمل بأمر " ريكردوس " ملك إنجلترا الحاضر هنا » .

قال هذا ورفع قناعه فدوت الأصوات هاتفة :

ـ « الملك ! الملك ! »

وثنى « ريكردوس » عِنان جواده فسار به يتبعه فرسانه . . .

أما « رفقة » فقد كانت غائبة عن الوعى ، مرتمية بين ذراعى والدها تنشج وتنتحب فقال لها أبوها :

ــ « هيّا بنا يا ابنتى ننطرح على قدمى الفارس " أيفنهو " لنشكره على صنيعه ! » فقالت :

« لا أستطيع الآن فقواى لا تساعدنى ... لنهرب من هذا الجحيم ! » فقال :

ــ « أنهرب قبل أن نشكر الفارس الذى جاء والسّيف والرمح فى يده لينقذك أنت الفتاة الغريبة ! » فقالت :

ــ « لتقتصّ منى السّماء إذا لم يكن قلبى مفعماً بعرفان الجميل ، ولكنّنى لا أرانى قادرة على أن أقدّم له ما يستحق من شكر ، وكيفما كان الأمر فها هو ذا قد سار فى معيّة الملك » .

وبعد أيام قلائل احتفل بزواج « أيفنهو » و « روناء » احتفالا باهراً شهده الملك ، وكان قد عاد إلى مملكته وقبض على ناصية الحال وعفا عن أخيه وأعوانه ، وقرّب إليه كبراء السّكسون فاستتبّ الأمن والعدل فى بلاده.

وغداة العرس جاءت وصيفة « روناء » تخبرها أن فتاة غريبة تريد محادثتها على انفراد ، فتردّدت أولا ثم دفعها الفضول إلى القبول ، فدخلت عليها الفتاة الغريبة متشحة بخمار أبيض ، ولما صارت على مقربة منها



جثت على ركبتيها وقبّلت طرف ثوب « روناء » فقالت هذه :

— « علام هذه التّجلّة أيّتها الزائرة ؟» فقالت الفتاة :

— « لأعرب لك عما عليّ من واجب الشّكر للفارس " أيفنهو " ... أنا يا سيّدتى تلك اليهوديّة البائسة التى جازف من أجلها بحياته فى المبارزة القضائيّة » فقالت « روناء » :

— « إنه وفى بذلك دَيناً طوّقت به عنقه يوم داويته وضمّدت جراحه... أفنستطيع أن نكون لك عوناً فى أمر من الأمور ؟ » فقالت « رفقة » :

— « لا أطلب منك يا سيدتى النبيلة إلا أن تبلغيه شكرى ووداعى» فقالت « روناء » :

— « أترحلين عن إنجلترا ؟ » فقالت رفقة :

— « نعم يا سيدتى ، سنرحل أنا وأبى إلى غرناطة حيث يقيم عمّى مبجّلا مكرّماً فى ظلال الملك العربى محمد أبى عبد الله » فقالت «روناء» :

— « ألا تجدين هنا الأمن والطّمأنينة ؟ إن "ولفرد" هو أذن الملك وعينه ، والملك نفسه عادل كريم ! » فقالت « رفقة » :

— « لا أنكر ذلك يا سيدتى ولكن لا سبيل لنا نحن اليهود إلى العيش فى بلاد يمزّقها التعصب » فقالت « روناء » :

— « إن السّكسون والنورمان معاً يطيب لهم أن يرعوا الفتاة التى أنقذت " ولفرد أيفنهو " من جراحه ! » فقالت « رفقة » :

— « عزمنا ولا سبيل إلى الرّجوع عما عزمنا عليه ، فاسمحى لى بمنّة كريمة وهى أن ترفعى هذا الخمار الذى يخفى وراءه وجهاً مشهوراً بحسنه وجماله ! » فقالت « روناء » :

— « على أن تسمحى لى أنت بمثل هذه المنّة ! »

ورفعت كلتاهما خمارها ، وحدّقت كلٌّ منهما بصاحبتها طويلا ثم قالت « رفقة » :

— « إن هذه القسمات الجميلة التى سمحت لى برؤيتها ستظلّ منقوشة فى خاطرى ، فالوداع يا سيّدتى وتفضّلى بقبول هذه العلبة » .

وقدّمت إليها علبة مصنوعة من العاج والفضّة تحتوى على عقد وقرط من الألماس لا تقدر قيمتهما بثمن فصاحت « روناء » :

— « لا أستطيع أن أقبل مثل هذه الهدية الغالية الثمن ! » فقالت « رفقة » :

— « تفضّلى بقبولها يا سيّدتى وتكرّمى بالتحلّى بها ، فأنت صاحبة منزلة رفيعة يحفّ بك المجد والشّرف والسّلطان ، أما نحن فليس لنا إلا الغنى وهو قوّتنا وضعفنا ، وهذه الهدية لا قيمة لها عندنا ولا عندى ، فلن أتحلّى بعد اليوم بمثل هذه الجواهر ! » فقالت « روناء » وقد تأثرت من لهجة الفتاة :

— « أنت إذن تاعسة ! فابقى عندنا وعيشى بيننا أكن لك أختاً وفيّة ! »

فقالت « رفقة » :

ــ « شكراً لك يا سيّدتى ! على أنى لن أكون تاعسة فالله الذى سأهبه بقية عمرى وأخدمه فيها سيضفى علىّ العزاء والسّلوان ! » فقالت « روناء » :

ــ « أعندكم إذن أديرة ؟ » فقالت « رفقة » :

ــ « كلاّ يا سيّدتى ، ولكنّنى سأقضى حياتى فى خدمة المرضى وتعزية الحزانى ومساعدة الفقراء ، فأرجو أن تقولى هذا لزوجك الشّجاع إذا سأل عن مصير التى أنقذها من الموت ! »

وقالت هذه العبارة الأخيرة بصوت متهدّج ، فنهضت وودّعت « روناء » وتركتها على جانب كبير من العطف والتأثّر ، ولما أبلغت « روناء » زوجها « أيفنهو » خبر هذه الزيارة وما دار فيها من حديث اختلج قلبه هو أيضاً حناناً وتأثراً .

وقضى « أيفنهو » و « روناء » حياة سعيدة هانئة ، فكان الرّجل الأثير عند « ريكردوس » فغمره بمجالى الرّفعة والإكرام ، وكان يتدرّج كلّ يوم صُعُداً فى معارج العزّة والشّرف . . .



رقم الإيداع	١٩٩١ / ٢٨٦٤
الترقيم الدولى 7 – 3201 – 02 – 977	ISBN

١ / ٩١ / ٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

أولادنا

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام .

ظهر منها

١ - عمرون شاه
٢ - مملكة السحر
٣ - كريم الدين البغدادى
٤ - آلة الزمن
٥ - الأمير والفقير
٦ - كتاب الأدغال
٧ - بينوكيو
٨ - نبوءة المنجم
٩ - روبن هود
١٠ - دون كيشوت
١١ - ايفنهــــو
١٢ - جزيرة الكنز
١٣ - كنوز الملك سليمان
١٤ - سجين زندا
١٥ - الزنبقة السوداء
١٦ - مون فليت
١٧ - مقبرة الأفيال
١٨ - الربان بلود
١٩ - تيودورا
٢٠ - أوليفرتويست
٢١ - دافيد كوبر فيلد
٢٢ - فى مهب الريح
٢٣ - الفخ الذهبى
٢٤ - عودة المحارب
٢٥ - حصان طروادة
٢٦ - نساء صغيرات
٢٧ - توم سوير
٢٨ - الأربعة الذين سرقوا الزمن
٢٩ - الربان الجرىء
٣٠ - العم نعناع
٣١ - أم حنان